

# الكتاب الثاني

الحضارة الإسلامية

١٢٥٨ - ٥٦٩

oboeikenda.com

# ثبت مسلسل بالحوادث التاريخية الواردة

## في الكتاب الثاني

- |   |   |
|---|---|
| ٦٩١ - ٦٩٤ : بناء المسجد الأقصى وقبة<br>الصخرة في بيت المقدس | ٥٧٠ - ٦٣٢ : محمد ( صلى الله عليه<br>وسلم )          |
| ٦٩٣ - ٨٦٢ : حكم المسلمين في أرمينية                         | ٦١٠ : الوحي .                                       |
| ٦٩٨ : استيلاء المسلمين على<br>قرطاجنة .                     | ٦٢٢ : هجرة النبي إلى المدينة .                      |
| ٧٠٥ - ٧١٥ : خلافة الوليد الأول .                            | ٦٣٠ : فتح مكة .                                     |
| ٧٠٥ وما بعدها - بناء الجامع العظيم في<br>دمشق               | ٦٣٢ - ٦٣٤ : خلافة أبي بكر .                         |
| ٧١١ : دخول المسلمين أسبانيا                                 | ٦٣٤ - ٦٤٤ : خلافة عمر بن الخطاب .                   |
| ٧١٥ - ٧١٧ : خلافة سليمان الأول .                            | ٦٣٥ : استيلاء المسلمين على<br>دمشق .                |
| ٧١٧ - ٧٢٠ : خلافة عمر بن عبد العزيز                         | ٦٣٧ : استيلاء المسلمين على<br>بيت المقدس والمدائن . |
| ٧٢٠ - ٧٢٤ : خلافة يزيد الثاني .                             | ٦٤١ : فتح بلاد الفرس ومصر                           |
| ٧٢٤ - ٧٤٣ : خلافة هشام بن<br>عبد الملك .                    | ٦٤١ : إنشاء القسطنطينية .                           |
| ٧٣١ : واقعة تور وارتداد<br>المسلمين .                       | ٦٤٢ : إنشاء مسجد عمرو في<br>القسطنطينية .           |
| ٧٤٣ - ٧٤٤ : خلافة الوليد الثاني .                           | ٦٤٤ - ٦٥٦ : خلافة عثمان بن عفان .                   |
| ٧٥٠ : أبو العباس السفاح<br>يؤسس الدولة العباسية             | ٦٥٦ - ٦٦٠ : خلافة عل بن أبي طالب                    |
| ٧٥٤ - ٧٧٥ : خلافة المنصور واتخاذ<br>بغداد عاصمة .           | ٦٦٠ - ٦٨٠ : خلافة معاوية بن<br>أبي سفيان .          |
| ٧٥٥ - ٧٨٨ : عبد الرحمن الأول أمير<br>قرطبة .                | ٦٦٠ - ٧٥٠ : الخلافة الأموية في<br>دمشق .            |
| ٧٥٧ - ٨٤٧ : فلاسفة المعتزلة .                               | ٦٦٢ : استعمال الأرقام الهندية<br>في الشام .         |
| ٧٦٠ : نشأة الطائفة الإسماعيلية                              | ٦٨٠ : مقتل الحسين في كربلاء                         |
| ٧٧٥ - ٧٨٦ : خلافة المهدي .                                  | ٦٨٠ - ٦٨٣ : خلافة يزيد الأول .                      |
| ٧٨٦ : الجامع الأزرق في قرطبة                                | ٦٨٧ - ٦٨٤ : خلافة معاوية الثاني .                   |
|   | ٦٨٥ - ٧٠٥ : خلافة عبد الملك<br>ابن مروان .          |

٩٣٤ - ١٠٢٠ : الفردوسي الشاعر .  
 ٩٤٠ - ٩٩٨ : أبو الوفا العالم  
 الرياضي .  
 ٩٤٥ - ١٠٥٨ : سيادة بني بويه على  
 بغداد .  
 ٩٥١ : وفاة المسعودي  
 الجغرافي .  
 ٩٥٢ - ٩٧٧ : أشوط الثالث :  
 عصر أرمينية الذهبية  
 ٩٩٠ - ١٠٢٠ : كاجيك الأول في  
 العصور الوسطى .  
 ٩٦١ - ٩٧٦ : خلافة الحكم في  
 قرطبة .  
 ٩٦٥ - ١٠٣٩ : ابن الهيثم العالم في  
 الطبيعة .  
 ٩٦٧ - ١٠٤٩ : أبو سعيد الشاعر  
 الصوفي .  
 ٩٩٩ - ١١٧١ : الأسرة الفاطمية  
 في مصر .  
 ٩٧٠ : بناء الجامع الأزهر  
 في القاهرة .  
 ٩٧٣ - ١٠٤٨ : البيروني ، العالم .  
 ٩٧٣ - ١٠٥٨ : المعري ، الشاعر .  
 ٩٧٦ - ١٠١٠ : خلافة هشام في  
 قرطبة .  
 ٩٧٨ - ١٠٠٢ : المنصور الوزير في  
 قرطبة .  
 ٩٨٠ - ١٠٣٧ : ابن سينا الفيلسوف  
 ٩٨٣ وما بعدها : إخوان الصفا .  
 ٩٩٠ - ١٠١٢ : بناء جامع الحاكم  
 في القاهرة .  
 ٩٩٨ - ١٠٣٠ : السلطان محمود  
 الغزنوي .  
 ١٠١٢ : ثورة البربر في قرطبة  
 ١٠١٧ - ١٠٩٢ : الوزير نظام الملك  
 ١٠٣١ : خاتمة الخلافة في قرطبة

٧٨٦ - ٨٠٩ : خلافة هرون الرشيد .  
 ٧٨٩ - ٩٧٤ : قيام أسرة الأدارسة  
 في فاس .  
 ٨٠٣ : نكبة البرامكة .  
 ٨٠٣ وما بعدها : الكندي  
 الفيلسوف .  
 ٨٠٨ - ٩٠٩ : بنو الأغلب في القيروان  
 ٨٠٩ - ٨١٠ : استيلاء المسلمين على  
 ورسقة وسردانية .  
 ٨٠٩ - ٨٧٧ : حنين بن إسحق العالم .  
 ٨١٣ - ٨٣٣ : خلافة المأمون .  
 ٨٢٠ - ٨٧٢ : بنو طاهر في فارس .  
 ٨٢٢ - ٨٥٢ : عبد الرحمن الثاني أمير  
 قرطبة .  
 ٨٢٧ وما بعدها : استيلاء المسلمين على  
 صقلية .  
 ٨٣٠ : إنشاء بيت الحكمة في  
 بغداد .  
 ٨٣٠ : وضع الخوارزمي علم الجبر  
 ٨٤٤ - ٩٢٦ : الرازي ، الطبيب .  
 ٨٤٦ : هجوم المسلمين على  
 رومة .  
 ٨٧٠ - ٩٥٠ : الفارابي ، الفيلسوف .  
 ٨٧٢ - ٩٠٣ : الصفاريون في فارس .  
 ٨٧٣ - ٩٣٥ : الأشعري الفقيه .  
 ٨٧٨ : بناء مسجد ابن طولون  
 في القطائع  
 ٩٠٩ وما بعدها : الخلافة الفاطمية في  
 القيروان .  
 ٩١٢ - ٩٦١ : عبد الرحمن خليفة في  
 قرطبة .  
 ٩١٥ وما بعدها : الطبري المؤرخ .  
 ٩١٥ - ٩٦٥ : المتنبى الشاعر .

١١٤٨ - ١٢٤٨ : أسرة الموحدين في أسبانيا .  
١١٦٢ - ١٢٢٧ : چنكيز خان .  
١١٧٥ - ١٢٤٩ : الأسرة الأيوبية .  
١١٧٩ - ١٢٢٠ : ياقوت الجغرافي .  
١١٨١ وما بعدها : قصر أشبيلية .  
١١٤٨ - ١٢٩١ : السعدي ، الشاعر .  
١١٨٧ : صلاح الدين يهزم الصليبيين في حطين ويستولي على بيت المقدس .  
١١٨٨ : مجد النظامي الشاعر  
١٢٩٦ : برج الخردة في أشبيلية .  
١٢٠١ - ١٢٧٣ : جلال الدين الرومي ، الشاعر .  
١٢١١ - ١٢٨٢ : ابن خلكان كاتب السير .  
١٢١٢ : المسيحيون يهزمون المسلمين في واقعة العقاب عند طليطلة  
١٢١٨ - ١٢٣٨ : الكامل ، سلطان مصر .  
١٢١٩ : چنكيز خان يغزو ما وراء جيحون .  
١٢٤٥ : استيلاء المغول على بيت المقدس .  
١٢٤٨ وما بعدها : قصر الحمراء .  
١٢٥٠ - ١٥١٧ : حكم المماليك في مصر  
١٢٥٢ : انحصار ملك المسلمين بالأندلس في غرناطة  
١٢٥٨ : المغول يهبطون بغداد ويقضون على الخلافة العباسية .  
١٢٦٠ : المماليك يصدون المغول في واقعة عين جالوت .  
١٢٦٠ - ١٢٧٧ : بيبرس سلطان المماليك

١٠٣٨ : الأتراك السلاجقة يغزون بلاد الشام .  
١٠٣٨ - ١١٢٣ : الشاعر عمر الخيام .  
١٠٤٠ - ١٠٩٥ : المعتمد الأمير والشاعر .  
١٠٥٨ : استيلاء السلاجقة على بغداد .  
١٠٥٨ - ١١١١ : الإمام الغزالي .  
١٠٥٩ - ١٠٦٣ : طغرل بك سلطان في بغداد .  
١٠٦٠ : استيلاء السلاجقة على أرمينية .  
١٠٦٣ - ١٠٧٢ : السلطان ألب أرسلان .  
١٠٧١ : الأتراك يهزمون اليونان في ملازكرت  
١٠٧٢ - ١٠٩٢ : السلطان ملك شاه  
١٠٧٧ - ١٣٢٧ : سلطنة الروم في آسية الصغرى .  
١٠٨٨ وما بعدها : المسجد الجامع في إصفهان .  
١٠٩٥ : قيام طائفة الحشاشين  
١٠٩٠ - ١١٤٧ : أسرة المرابطين في الأندلس .  
١٠٩١ - ١١٦٢ : ابن زهر الطبيب .  
١٠٩٨ : استيلاء الفاطميين على بيت المقدس .  
١١٠٠ - ١٠٦٦ : الإدريسي الجغرافي  
١١٠٦ وما بعدها : محمد ابن باجة الفيلسوف .  
١١٠٧ - ١١٨٥ : ابن طفيل الفيلسوف  
١١١٧ - ١١٥١ : سنجر سلطان السلاجقة .  
١١٢٦ - ١١٩٨ : ابن رشد الفيلسوف  
١١٣٠ - ١٢٦٩ : أسرة الموحدين في مراکش .  
١١٣٨ - ١١٩٣ : صلاح الدين الأيوبي

# الباب الثامن

محمد (صلى الله عليه وسلم)

٥٧٠ - ٦٣٢

## الفصل الأول

جزيرة العرب (\*)

توفي جستنيان في عام ٥٦٥ وهو سيد إمبراطورية عظيمة ، وبعد خمس سنين من وفاته ولد محمد (صلعم) في أسرة فقيرة في إقليم ثلاثة أرباعه صحراء

(\*) إن إعادة كشف بلاد العرب على يد الأوربيين في العصر الحديث لمن أكبر الأدلة على سعة أفق العلماء في القرن التاسع عشر وعلى أن العلم كان في ذلك القرن يعد العالم كله وطناً له . وقد بدأ هذا الكشف في أعوام ١٧٦١ - ١٧٦٤ حين اخترق كارستن نايهر Carsten Niebuhr شبه الجزيرة برعاية حكومة الدنمركة . وكان كتابه الذي نشره في عام ١٧٧٢ أوسع وصف لبلاد العرب حتى ذلك الوقت . وفي عام ١٨٠٧ تزى دمنجو باديا أي ليلتش Dominge Badis Y. Leblach الأسباني بزى المغاربة وزار مكة ثم نشر بعد رجوعه أول وصف دقيق لمناسك الحج . وفي عام ١٨١٤ - ١٨١٥ قضى جوهان لدفيج بيركهاردت John Ludwig Burckhardt ، وهو رجل سويسري تزى بزى المسلمين ، عدة أشهر في مكة والمدينة وقد أيد الرحالة الذين وفدوا على جزيرة العرب من بعده ما جاء في تقاريره الوافية من معلومات كثيرة . وفي عام ١٨٥٣ زار مكة والمدينة الرحالة رتشارد بيرتن Richard Burton وهو رجل إنجليزي تزى بزى حاج أفغانى ، ثم وصف رحلته الشاقة الخطرة في مجلدين ممتعين .

وفي عام ١٨٦٩ - ١٨٧٠ ارتاد ج . هليفى J. Holvey ، وهو يهودى فرنسى ، مواضع ممالك المعينيين وسبأ والحميريين الأقدمين ونقل ما وجدته في تلك المواضع من نقوش على الصخور .

وفي عام ١٨٧٥ سافر تشارلس منتجيو دوتن Charles Montague Doughton الإنجليزي من دمشق مع قافلة الحجاج ونشر ما وقع له في كتابه بلاد العرب الصحراوية .

مجديّة قليلة السكان ، أهله من قبائل البدو الرحل ، إذا جمعت ثروتهم كلها فإنها لا تكاد تكفي لإنشاء كنيسة أياصوفيا . ولم يكن أحد في ذلك الوقت يحلم أنه لن يمضي قرن من الزمان حتى يكون أولئك البدو قد فتحوا نصف أملاك الدولة البيزنطية في آسية ، وجميع بلاد الفرس ، ومصر ، ومعظم شمالي أفريقيا ، وساروا في طريقهم إلى أسبانيا . والحق أن ذلك الحادث الجلل الذي تمخضت عنه جزيرة العرب ، والذي أعقبه استيلاؤها على نصف عالم البحر المتوسط ونشر دينها الحديد في ربوعه ، لهو أعجب الظواهر الاجتماعية في العصور الوسطى .

وببلاد العرب أكبر أشباه الجزائر في العالم ، يبلغ أكبر أطوالها ١٤٠٠ ميل وأكبر عرضها ١٢٥٠ ميلا ، وهي من الوجهة الجيولوجية امتداد للصحراء الكبرى ، وجزء من الإقليم الصحراوي الرملّي الذي يمتد إلى صحراء جوبي محترقا بلاد الفرس . ومعنى « عرب » قحل (\*) . وبلاد العرب هضبة واسعة ترتفع على مسافة ثلاثين ميلا من البحر الأحمر ارتفاعا فجائيا إلى ١٢٠٠٠ قدم ، ثم تنحدر نحو الشرق انحدارا سهلا في أرض جبلية جدباء حتى تصل إلى الخليج الفارسي . وفي وسط الجزيرة عدد من الواحات الكثة ، والقرى ذات النخيل ، نشأت حيث يمكن الحصول على الماء بحفر الآبار . وتمتد الرمال حول هذه المراكز مئات الأميال في جميع الجهات . ويسقط الثلج في تلك البلاد مرة كل أربعين عاما ، وتنخفض درجة الحرارة فيها بالليل إلى ٣° ، أما شمس النهار فتلفح الوجوه وتغلي الدم في الغروق ، والهواء المحمل بالرمل يضطر الأهلين إلى لبس الأثواب الطوال ،

---

= Arabia Deserta ( ١٨٨٨ ) الذي يعد من روائع النثر الإنجليزي م  
وفيما بين ١٨٨٢ - ١٨٨٨ قام ا . جلازر E. Glaser النمساوي بثلاث رحلات شاقة  
خطرة في قلب الجزيرة نقل في خلالها ١٠٣٢ نقشا هي الآن أهم مصدر لتاريخ بلاد العرب  
قبل الاسلام .

( \* ) ورد في القاموس المحيط : تعرب أقام بالبادية ولعل المؤلف أخذ من هذا قوله  
- إن عرب مغناه قحل ( المترجم ) .

وشد غطاء الرأس بالعقال لوقاية الجسم والشعر ، وتكاد السماء تكون على الدوام صافية خالية من الغيوم ، والهواء « يشبه النيذ البراق » ، ويسقط المطر أحيانا قرب شاطئ البحر فيجعله صالحا لقيام الحضارة ، وأكثر ما يكون ذلك على الساحل الغربي في بلاد الحجاز حيث نشأت بلدتا مكة والمدينة ، وفي الطرف الجنوبي الغربي من بلاد اليمن موطن الممالك العربية القديمة .

ويسجل نقش بابلي ( يرجع تاريخه إلى حوالي عام ٢٤٠٠ ق م ) هزيمة لحقت بملك ماجان (\*) على يد نارام سن الحاكم البابلي . وقد كانت ماجان هذه عاصمة المملكة المعينية التي كانت قائمة في الجنوب الغربي من جزيرة العرب . وقد عرف خمسة وعشرون من ملوكها الذين حكموها بعد هذه الهزيمة من نقوش عربية يرجع تاريخها إلى عام ٨٠٠ ق م . وثمة نقش آخر يرجعه بعضهم إلى ٢٣٠٠ ق م وإن كانوا غير واثقين من هذا . وقد ورد في هذا النقش اسم مملكة عربية أخرى هي مملكة سبأ في بلاد اليمن . ومن سبأ أو من مستعمراتها في القسم الشمالي من بلاد العرب - لأن هذا موضع خلاف بين المؤرخين - « ذهب » ملكة سبأ إلى سليمان حوالي عام ٩٥٠ ق م . وقد اتخذ ملوك سبأ مأرب عاصمة لهم ، وخاضوا حروب « الدفاع » المعتادة ، وأنشأوا أعمالا عظيمة للرى كسدود مأرب ( التي لا تزال آثارها باقية إلى الآن ) ، وشادوا الحصون والهياكل الضخمة ، ووهبوا كثيراً من المال للشئون الدينية ، واتخذوا الدين وسيلة للحكم (٢) . والنقوش التي خلفوها - والتي لا ترجع في أغلب الظن إلى ما قبل عام ٩٠٠ ق م - منحوتة نحتاً جميلاً بحروف هجائية . وكانت بلادهم تنتج الكندر والمر اللذين كان لهما شأن أيما شأن في الشعائر الدينية الآسيوية والمصرية ، وكانوا يسيطرون على التجارة البحرية بين الهند ومصر ، وعلى الطرف الجنوبي

( \* ) لعل ماجان التي وردت في النقوش البابلية هي بعينها معين التي تنتسب إلى المملكة المعينية والتي اشتقت منها كلمتا معان اسم البلد ومعين بمعنى ينبوع . ( المترجم ) .

من طريق القوافل الذاهب إلى البتراء وبيت المقدس مارا بمكة والمدينة .  
وحدث حولي عام ١١٥ ق . م أن قامت مملكة صغيرة أخرى في الجنوب  
الغربي من بلاد العرب هي مملكة الحميريين ، فهاجمت مملكة سبأ ، وغلبتها على  
أمرها ، وظلت بعد هذا الوقت تسيطر على تجارة بلاد العرب عدة قرون ،  
وفي عام ٢٥ ق . م غضب أغسطس من سيطرة بلاد العرب على التجارة  
المبادلة بين مصر والهند فسير جيشا بقيادة جالوس Aelius Gallus للاستيلاء  
على مأرب . وأضل الأدلاء العرب الفيالق الرومانية ، وأهلكهم الحر والمرض ،  
وعجزت الحملة عن تحقيق غرضها ، ولكن جيشا رومانيا آخر نجح في الاستيلاء  
على عدن ، وانتقلت بذلك السيطرة على التجارة بين مصر والهند إلى يد رومة .  
( وقد فعل البريطانيون ذلك بعينه في الوقت الحاضر ) .

وفي القرن الثاني قبل الميلاد عبر بعض الحميريين البحر الأحمر  
واستعمروا بلاد الحبشة ، ونشروا الثقافة السامية بين أهلها الزنوج ، كما  
أدخلوا فيها كثيرا من الدم السامي (\*) . وتلقى الأحباش من مصر وبيزنطية الدين  
المسيحي والصناعات اليدوية والفنون . وكانت سفنهم التجارية تجوب البحار  
وتوغل فيها حتى تصل إلى الهند وسرنديب (٢) . وكانت سبع ممالك صغيرة  
تقر بالسيادة للنجاشي (\*\*).

---

( \* ) يطلق اسم الساميين على الشعوب التي تنتسب إلى سام بن نوح ما هو وارد في سفر  
التكوين ( ١٠ : ١ ) . وليس في استطاعتنا أن نقول بالدقة ما هي هذه الشعوب السامية ،  
ولكننا نستطيع أن نقول بوجه عام إن سكان سوريا ، وفلسطين وأرض النهرين ، وبلاد  
العرب ، والسكان العرب في أفريقية ساميون ، إذا فهمنا من هذا اللفظ أنهم يتكلمون لغات  
سامية ، كما نستطيع أن نسمى السكان الأقدمين في آسية الصغرى وأرمينية ، وبلاد القفقاس :  
رأهل فارس ، وشمالى الهند ، ومعظم أوروبا وجميع سكان أمريكا الذين من أصل أوربي  
« هندوربيين » لأنهم يتكلمون لغات هندية جرمانية .

( \*\* ) جين Gibbon اضحلال الدولة الرومانية وسقوطها Decline and Fall  
of the Roman Empire طبعة Everman's Library المجلد الرابع ص ٣٢٢ . ولقد كان من  
مفاخر جين أنه أدرك ما للإسلام من شأن عظيم في تاريخ العصور الوسطى ، وأنه كتب تاريخه  
السياسى كتابة تم عن علم غزير ، وكتبه بدقة وبلاغة منقطعتى النظر .

هذا في الحبشة أما في بلاد العرب نفسها فإن كثيرين من الحميريين ساروا على سنة ملكهم ذي نواس ، واعتنقوا الدين اليهودي ، واندفع ذونواس في حماسته الدينية فأخذ يضطهد المسيحيين المقيمين في الجنوب الغربي من جزيرة العرب ، فاستغاث هؤلاء بنبي دينهم ، واستجاب الأحباش إلى دعوتهم ، وهزموا ملوك الحميريين ( ٥٢٢ م ) ، وأجلسوا على عرش البلاد أسرة حبشية . وتحالف جستنيان مع الدولة الجديدة ، ورد الفرس على هذا بأن انحازوا إلى جانب ملوك حمير المخلوعين وطرّدوا الأحباش ، وأقاموا في بلاد اليمن حكماً فارسياً ( ٥٧٥ ) انتهى بعد ستين عاماً أو نحوها حين فتح المسلمون بلاد الفرس .

وازدهوت بعض الممالك العربية الصغرى في الجزء الشمال من شبه الجزيرة ، ولكنها لم تدم طويلاً . فقد ظل مشايخ بني غسان يحكمون الجزء الشمال الغربي والقسم المحيط بتدمر من بلاد سوريا من القرن الثالث إلى القرن السابع تحت سيادة بيزنطية . وأنشأ ملوك بني لخم في الحيرة القريبة من بابل في هذا الوقت عينه بلاطاً نصف فارسى ، وتثقفوا ثقافة فارسية اشتهرت بموسيقاهات وشعرها . ويرى من هذا أن العرب انتشروا شمالاً في سوريا والعراق قبل الإسلام بزمن طويل .

وكان النظام السياسى السائد في بلاد العرب قبل الإسلام ، إذا استثنينا هذه الممالك الصغرى في الجنوب والشمال ، هو النظام البدائى الذى يقوم على رابطة القرابة والذى تجتمع الأسر بمقتضاه في عشائر وقبائل . بل إن هذه الممالك الصغرى نفسها لم تكن تخلو من قسط كبير من هذا النظام القبلى . وكانت القبيلة تسمى باسم أب لها مزعوم عام ، فالغساسنة مثلاً كانوا يعتقدون أنهم « أبناء غسان » ، ولم يكن لبلاد العرب بوصفها وحدة سياسية وجود قبل عصر النبي إلا في مسميات اليونان غير الدقيقة ، فقد كانوا يسمون جميع الساكنين في شبه الجزيرة باسم السركنوى Sarakenoi ، ومن هذا الاسم اشتق اللفظ الإنجليزى Saracens ، ويلوح أنه هو

نفسه مشتق من لفظ « الشرقيين » العربى . وكانت قلة سبل الاتصال وصعوبتها مما اضطر أهل البلاد إلى أن يعملوا على الاكتفاء بأنفسهم عن غيرهم ، كما أنهما كانتا سبباً فى نمو روح العزلة فيهم ، فالعربى لم يكن يشعر بواجب أو ولاء لأية جماعة أكبر من القبيلة ، وكانت قوة ولائه تناسب تناسباً عكسياً مع سعة الجماعة التى يدين لها بهذا الولاء ، فلم يكن يتردد فى أن يقدم وهو مرتاح الضمير على ما لا يقدم عليه الرجل المتحضر إلا من أجل بلاده أو دينه أو « عنصره » ، أى أن يكذب ، ويسرق ، ويقتل ، ويموت . وكان يحكم كل قبيلة أو بطن من قبيلة شيخ يختاره رؤساء العشائر فيها من بيت اشهر من زمن بعيد بترائه ، أو سداد رأيه ، أو شدة بأسه فى القتال .

وكان الرجال فى القرى ينزعون بعض الحب والخضر من التربة الضئيلة ، ويربون بعض الماشية القليلة العدد ، وبعض الجياد الكريمة ، ولكنهم كانوا يجدون أن زراعة بساتين النخل ، والخوخ ، والمشمش ، والرمان ، والليمون ، والبرتقال ، والموز ، والتين أجدى لهم وأعود بالربح عليهم . ومنهم من كان يعنى بزراعة النباتات العطرية كالكندر ، والسعتر ، والياسمين ، والخزامى ؛ وكان بعضهم يستخرجون العطر من ورد الجبال ، وبعضهم يحفرون سيقان الأشجار ليستخرجوا منها المر أو البلسم . وربما كان جزء من اثنى عشر جزءاً من السكان يعيشون فى المدن القائمة على الساحل الغربى أو بالقرب منه . وكان فى هذا الساحل عدد من المرافئ والأسواق تتبادل منها تجارة البحر الأحمر . وفى داخل البلاد كانت تسير طرق القوافل الكبرى إلى بلاد الشام .

ونحن نسمع عن تجارة بين بلاد العرب ومصر منذ عام ٢٧٤٣ ق.م ؛ وأكبر الظن أن الاتجار مع الهند لم يكن يقل قدماً عن الاتجار مع مصر . وكانت الأسواق والمواسم السنوية تستدعى التجار إلى هذه المدينة تارة وإلى تلك تارة أخرى ، وكان

يجتمع في سوق عكاظ الشهيرة القريبة من مكة مئات من التجار ، والممثلين ، والخطباء ، والمقامرين ، والشعراء ، والعاشرات .

وكان خمسة أسداس السكان بدواً رحلاً ، يشتغلون بالرعى وينتقلون بقطعانهم من مرعى إلى مرعى حسب فصول السنة وأمطار الشتاء . والبدوى يحب الخيل ، ولكن الحمل أعز أصدقائه في الصحراء ، فهو يسير ويهتز في وقار ، وإن كان لا يقطع إلا ثمانية أميال في الساعة ، ولكنه يستطيع أن يصبر على الماء خمسة أيام طوال في الصيف ، وخمسة وعشرين يوماً في الشتاء . والناقة تدر اللبن ، وبول الحمل مفيد في تقوية الشعر (\*) ، وروثه يمكن أن يتخذ وقوداً ، وإذا ذبح أكل لحمه ، وصنعت الثياب والخيام من جلده ووبره . وبهذه المقومات المختلفة الأنواع كان في وسع البدوى أن يواجه حياة الصحراء متجلداً كجمله ، مرهف الحس نشيطاً كجواده . والبدوى قصير القامة ، نحيف الجسم ، مفتول العضلات ، قوى البنية ، في وسعه أن يعيش أياماً متوالية على قليل من التمر واللبن ، وكان يستخرج من البهلبه نفسه حمرا يرتفع بها من تراب الأرض إلى خيال الشعراء . وكان يدفع عن نفسه ملل الحياة الرتيبة وسأمها بالحرب والحرب ، وكان يسرع كما يسرع الأسباني ( الذي ورث عنه سرعة غضبه ) إلى الانتقام لما عساه أن يوجه إليه أو إلى قبيلته من إهانة أو أذى . وكان يقضي جزءاً كبيراً من حياته في الحرب التي تستعمر نارها بين القبائل المختلفة ، ولما أن فتح بلاد الشام ، وفارس ، ومصر ، وأسبانيا لم يكن عمله هذا إلا توسعاً منه في غارات النهب التي كان يشنها في أيام الجاهلية وإن اختلف الغرض في هذه عن تلك .

وكان يجعل من بعض أوقات السنة هدنة مقدسة للحج أو للتجارة ، أما في غير هذه الأوقات فكان يرى أن الصحراء ملكه الخاص ، وأن كل من

---

( \* ) يقول دوق Doughty إن نساء البدو « يغسلن أطفالهن ببول الجمال » ظناً منهن أن ذلك يبعد عنهن الحشرات . . . ويمشط الرجال والنساء شعرهم الطويل بهذا الماء .

يدخلها في غير هذه الأشهر الحرم ومن غير أن يؤدي له ما يفرضه من إتاوة ، معتد عليه وعلى وطنه ، وأن نهب أموال هذا المعتدى ليس إلا ضريبة تجبي منه بأهون السبل . وكان يحتقر حياة الحضر ، لأن معناها الخضوع لمطالب القانون والتجارة ، ويجب الصحراء القاسية لأنه يتمتع فيها بكامل حرية ، وكان البدوي رحياً وسفاكاً للدماء ، كريماً وبخيلاً ، غادراً وأميناً ، حذراً وشجاعاً ، ومهما يكن فقراً ، فإنه كان يواجه العالم بمهابة وأنفة ، يزهو بنقاء دمه ويولع بأن يضيف إلى اسمه سلسلة نسبه .

وكان لدى البدوي أمر لا يقبل فيه جدلاً ، ذلك هو جمال نسائه الذي لا يدانيه في نظره جمال . لقد كان جمالاً أسمر ، قويا ، يفتن اللب ، خليقاً بأن يتغزل فيه بعشرات المئات من الأغاني الشعرية ، ولكنه جمال قصير الأجل سرعان ما يذوي في جو الصحراء القاطظ . وكانت حياة المرأة العربية قبل أيام النبي تنتقل من حب الرجل لها حباً يقرب من العبادة إلى الكدح طوال ما بقي من حياتها ، ولم تتغير هذه الحياة فيما بعد إلا قليلاً (\*) . وكان في وسع أبها أن يثدها حين مولدها إذا رغب في هذا ، فإن لم يفعل فلا أقل من أن يحزن لمولدها ، ويوارى وجهه خجلاً من الناس ، لأنه يحس لسبب ما أن جهوده قد ذهبت أدراج الرياح ، وكانت طفولتها الجذابة تستحوذ على قلبه بضع سنين ، ولكنها حين تبلغ السنة السابعة أو الثامنة من عمرها كانت تزوج لأي شاب من شبان القبيلة يرضى والده أن يؤدي للعروس ثمنها (\*\*). وكان حينها وزوجها يحارب العالم كله إذا لزم الأمر ليحميها ، أو يدافع عن شرفها . وقد انتقلت بعض مبادئ هذه الشهامة المتطرفة مع

---

(\*) سجد في فصول الكتاب الآتية ما يدل على أثر الإسلام في رفع منزلة المرأة إلى درجة لم تسم إليها في كثير من البلدان ؛ وسيدكر المؤلف نفسه كثيراً من النساء اللاتي كان لهن أعظم شأن في الحياة العامة العملية والسياسية والاجتماعية . ( المترجم ) .

(\*\*) يريد مهرها . ( ٣ - ح ٢ - مجلد ٤ )

هوئلاء العشاق المتيمين إلى إسبانيا . ولكن هذه المعبودة كانت إلى هذا سلعة من السلع ، فقد كانت جزءاً من أملاك أبيها ، أو زوجها ، أو ابنها ، تورث مع هذه الأملاك ، وكانت على الدوام من خدم الرجل ، وقلما كانت رفيقته . وكان يطلب إليها أن تلد له كثيراً من الأبناء ، الأبناء الذكور بطبيعة الحال ، لأن واجبها أن تنجب المحاربين ، ولم تكن في كثير من الأحوال إلا زوجة واحدة من كثيرات من الزوجات وكان في وسع الرجل أن يخرجها من بيته متى شاء .

لكن مفاتيحها لم تكن تقل عن الحرب إلهاماً لخيال الشعراء ، وموضوعاً لشعرهم ، وكان العربي قبل الإسلام أمياً ولكن حبه للشعر لم يكن يزيد عليه إلا حبه للخيال والنساء والخمر . ولم يكن بين العرب في الجاهلية علماء أو مؤرخون (\*) ولكنهم كانوا مولعين بفصاحة اللسان ، وصحة الكلام ، والشعر المختلف المعقد الأوزان . وكانت اللغة العربية قريبة الشبه باللغة العبرية ، معقدة في تصريفها ، غنية بمفرداتها ، دقيقة في الفروق بين ألفاظها ، قادرة في ذلك الوقت على التعبير عن جميع أحاسيس الشعراء وفيما بعده عن جميع دقائق الفلسفة . وكان العرب يفخرون بقدم لغتهم وكماها ، يولعون بتريد مقاطعها العذبة في خطبهم الرنانة وشعرهم الجذل ونثرهم الرصين ، يأخذ بلبهم شعر الشعراء الذين كانوا يعيدون على أسماعهم في القرى والمدن ، وفي مخيمات الصحراء أو الأسواق ، مغامرات أبطالهم أو قبائلهم أو ملوكهم في الحب أو الحرب في قصائد طوال من الشعر الموزون المقفى . وكان الشاعر العربي مؤرخ العرب ، وجامع أنسابهم ، وهجاءهم ، والمتغنى بفضائلهم ، وناقل أخبارهم ، وملهمهم ، وداعهم إلى القتال . وإذا نال الشاعر جائزة في إحدى المباريات الشعرية الكثيرة التي كانت تعقد من آن إلى

---

(\*) من الحق أن العرب في جاهليتهم لم يعنوا بالعلوم كما عني بها غيرهم من الأمم كأهل مصر والهند والفرس واليونان ، ولكن كان منهم من عني بشيء من العلوم الضرورية كالطب المبني على التجربة وأحوال الكواكب والنجوم . ( ي )

آن ، كانت قبيلته كلها تعد ذلك شرفاً لها تبتهج له أعظم ابتهاج . وكانت أهم هذه المباريات كلها تعقد كل عام في سوق عكاظ ، حيث كانت تتنافس القبائل في كل يوم تقريباً مدى شهر كامل على لسان شعرائها . ولم يكن في السوق محكمون غير الجاهير المنصتة التي تبدى استحسانها لما تسمع أو احتقارها له (\*) . وكانت أحسن القصائد التي تقال في هذه السوق تكتب بحروف جميلة براقة فسميت من أجل ذلك « بالمذهبات » ، وكان يحتفظ بها في خزائن الأمراء والملوك تراثاً خالداً قياً . وكان العرب يسمون هذه القصائد أيضاً بالمعلقات لأن الفائزة منها - كما تقول القصص المتواترة - قد كتبت على الحرير المصرى بأحرف من الذهب وعلقت على جدران الكعبة في مكة .

وقد بقيت من هذه المعلقات التي قيلت في الجاهلية سبع قصائد يرجع تاريخها إلى القرن السادس الميلادي ، وهي قصائد طوال من الشعر المقفى المعقد الأوزان ، وموضوعها في العادة هو الحب أو الحرب . وتقص إحداها وهي معلقة لبئد قصة جندي عاد من الحرب إلى قريته وبيته حيث كان قد ترك زوجته ، فوجد بيته خالياً ، وقد غادرت زوجته مع رجل غيره ، ويصف لبئد منظر هذا البيت الخيالي بحنان لا يقل عن حنان جولدميث (\*) . ويزيد عليه في فصاحة الشعر وقوة التعبير . وفي معلقة أخرى تستحث النساء الرجال إلى الحرب بقولهن :

ويها بنى عبد الدار . ويها حماة الديار

ضرباً بكل بتار

نحن بنات طارق لا ننشني لواحق

---

(\*) كانت هناك سوقان غير سوق عكاظ ، وهما سوقا مجنة وذو الحجاز وكان فيها أحياناً محكمون من ذوى المكانة . ( المترجم )

(\*\*) آثرنا أن نبقى هذا التعبير كما هو ، وإن كان لا يقرب المعنى للقارئ العربي ، لما فيه من مفاضلة بين شاعرين من أمتين مختلفتين وهي في رأينا مفاضلة فيها كثير من الفائدة . ( المترجم )

ممشى على النمارق المسك في المفارق  
والدر في المخانق إن تقبلوا نعانق  
ونفرش النمارق أو تدبروا نمارق  
فراق غير وامق (\*)

وفي معلقة لامرئ القيس أبيات تم عن حب شهواني سافر :  
وبيضة خدر لا يرام خباؤها  
تجاوزت أحراساً إليها ومعشرا  
إذا ما الثريا في السماء تعرضت  
فجئت وقد نضت انوم ثيابها  
فقلت يمين الله مالك حيلة  
خرجت بها أمشى تجر وراءنا  
فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى  
هصرت بفودي رأسها فهايلت  
مهفهفة بيضاء غير مفاضة  
تصد وتبدي عن أسيل وتتنى  
وجيد كجيد الرثم ليس بفاحش  
وفرع يزين المتن أسود فاحم  
غدائره مستشزرات إلى العلا  
وكشح لطيف كالجديل مخصر  
وتضحى فتيت المسك فوق فراشها  
وتعطو برخص غير شئن كأنه  
تضىء الظلام بالعشاء كأنها

تمتعت من لهو بها غير معجل  
على حراساً لو يسرون مقتلى  
تعرض أثناء الوشاح المفصل  
لدى الستر إلا لبسة المتفضل  
وما أن أرى عنك الغواية تنجلي  
على أثرينا ذيل مرط مرحل  
بنا بطن نبت ذى حفاف عقنقل  
على هضم الكشح ريباً المخلخل  
تراثها مصقولة كالسجنجل  
بناظرة من وحش وجرة مطفل  
إذا هى نضته ولا بمعطل  
أثيث كقنو النخلة المتشكل  
تضل العقاص فى مشى ومرسل  
وساق كأنبوب السقى المذلل  
نوؤم الضحى لم تنتطق عن تفضل  
أساريع ظبي أو مساويك أسحل  
منارة ممس راهب متبتل

(\*) لا حاجة إلى القول بأن هذا الرجز ليس المعلقات ؛ وقد أنشدته هند بنت عتبة  
تعرض قومها على القتال فى يوم أحد . (المترجم)

وكان شعراء الجاهلية ينشدون أشعارهم على نغمات الموسيقى ، فجمعوا بذلك بين الشعر والموسيقى في صورة واحدة . وكان الناي ، والمزهر ، والدف أحب الآلات الموسيقية إليهم ، وكثيرا ما كانت الفتيات المغنيات يستدعين لتسليّة الأضياف في الولائم ، وكان في مجال الشراب عدد منهن ، وكان عند ملوك الغساسنة عدد كبير من الفتيات ليفرجن عنهن متاعب الملك ، ولما خرج أهل مكة لقتال النبي في عام ٦٢٤ أخذوا معهم سرّبا من القيان ليسليهن ويشجعنهم على القتال ، وكانت الأغاني العربية حتى في أيام الجاهلية أناشيد مشجّية حزينة ، لا تستخدم فيها إلا ألفاظ قليلة نغمتها على الدوام في الدرجات العليا من السلم الموسيقي ، وتكفي فيها أبيات قليلة لتشغل المغنى ساعة كاملة .

وكان للعربي ساكن الصحراء دينه الدال على حذقه ودهائه رغم بدائيته ؛ فكان يهاب ويعبد أربابا لا حصر لها في النجوم ، والقمر ، وفي أطباق الأرض ؛ وكان من حين إلى حين يطلب الرحمة من السماء المنتقمة ، ولكنه لم يكن في الغالب يستبين سبيل الرشاد بين الجن المحيطين به ، ولا يرى أملا في استرضائهم ، فغلبت عليه من أجل ذلك نزعة الجبرية والاستسلام ، فإذا دعاهم دعاهم في رجولة ولم يطل الدعاء ؛ ويستهزئ بالأبدية ولا يعبا بها ؛ ويبدو أنه لم يكن يفكر كثيرا في الحياة بعد الموت ، على أنه كان في بعض الأحيان يطلب أن يربط جملة بجوار قبره ، وأن يمنع عنه الطعام حتى يلحق به بعد قليل في الدار الآخرة ، وينجيه من مذلة السير على قدميه في الجنة ، وكان بين الفينة والفينة يقدم لآلهته الضحايا البشرية ، كما كان في بعض الأماكن يعبد الأصنام الحجرية .

وكانت مكة مركز عبادة الأصنام ؛ ولم يكن سبب قيام هذه المدينة المقدسة في موضعها الذي قامت فيه هو جودة مناخها ، ذلك أن الجبال الجرداء التي تكاد تطبق عليها من جميع الجهات تجعل صيفها حارا لا يطاق . وكان الوادي الذي تقوم

فيه غير ذى زرع ، ولا يكاد يوجد في البلدة كلها كما عرفها محمد حديقة واحدة ، ولكن موقعها في منتصف ساحل البلاد الغربي ، وعلى بعد ثمانية وأربعين ميلاً من البحر الأحمر ، جعلها محطة صالحة في طرق القوافل الطوال التي تجمع في بعض الأحيان ألف جمل بعضها وراء بعض ، والتي كانت تحمل المتاجر بين جنوبي بلاد العرب ( ومن ثم بين الهند وأفريقية الوسطى ) وبين مصر ، وفلسطين ، وبلاد الشام . وكان التجار أصحاب هذه التجارة يؤلفون فيما بينهم شركات محاصة ، ويسيطرون على أسواق عكاظ ، ويقومون بالشعائر الدينية الحجزية حول الكعبة وحجرها الأسود المقدس .

ومعنى الكعبة البيت المربع . واللفظ ذو صلة باللفظ الإنجليزي Cube ( مكعب ) (\*) ومن المعتقدات الشائعة أن الكعبة بنيت ثم أعيد بناؤها عشر مرات ، فقد بناها في فجر التاريخ ملائكة السماء ، وبناها في المرة الثانية آدم أبو البشر ، وفي المرة الثالثة ابنه شيث ، ثم بناها في المرة الرابعة إبراهيم وإسماعيل ابنه من هاجر . . . . . وبناها في المرة السابعة قصي زعيم قبيلة قريش ، وبناها في المرة الثامنة كبار قريش في حياة محمد ( ٦٠٥ ) ، وبناها المرتين التاسعة والعاشره زعماء المسلمين عامي ٦٨١ و ٦٩٦ . والكعبة كما بنيت في المرة العاشرة هي كعبة هذه الأيام في معظم أجزائها . وهي مقامة في داخل بناء واسع هو المسجد الحرام . وهي بناء مربع من الحجر طولها أربعون قدماً ، وعرضها خمس وثلاثون ، وارتفاعها خمسون ، وفي ركنها الجنوبي الشرقي ، وعلى بعد خمس أقدام من سطح الأرض ، الحجر الأسود ، وهو حجر قاتم اللون بيضى الشكل قطره سبع بوصات . ويعتقد الكثيرون أن هذا الحجر قد نزل من السماء - ولعله كان صاعقة ؛ ويقول معظمهم

( \* ) في المحيط الكعبة البيت الحرام زاده الله تشریفاً وكل بيت مربع . ( المترجم )

إنه وجد بالكعبة من أيام إبراهيم ، ويرى علماء المسلمين أنه رمز لذلك الفرع من أبناء إبراهيم فرع إسماعيل وأبنائه الذي نبذه بنو إسرائيل فكان منه آباء قبيلة قريش . ويؤيدون قولهم هذا بما جاء في المزمور الثامن عشر بعد المائة في الآيتين ٢٢ و ٢٣ « الحجر الذي رفضه البنائون قد صار رأس الزاوية » ، وفي الآيتين ٤٢ و ٤٣ من الإصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى ، وهو قول عيسى بعد أن نطق بهذه العبارة العجيبة : « لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره » وإن لم يكن في وسع المسلمين أن يقولوا إنهم قد حققوا ما قاله عنهم المسيح (\*).

وكان في الكعبة قبل الإسلام عدد من الأصنام تمثل معبودات العرب . منها اللات ، والعزى ، ومناة . وفي وسعنا أن ندرك قدم عهد هذه الآلهة العربية إذا عرفنا أن هيرودوت قد ذكر الإلات ( اللات ) على أنها من أكبر أرباب العرب . وكانوا يقولون لأهل مكة إن إلههم الأكبر رب أرضهم ، وإن عليهم أن يؤدوا لها عشر محاصيلهم ، والثمره الأولى من نتاج قطعاتهم . وكانت قريش ، وهى التى تعزو نسبها إلى إبراهيم وإسماعيل ، تختار من بين رجالها سدنة الكعبة وخدامها والمشرفين على مواردها المالية . وكانت أقلية أرستقراطية منهم هم بنو قصى يتولون زمام الحكومة المدنية فى مكة .

وكانت قريش فى بداية القرن السادس منقسمة إلى فئتين متنافستين ، إحداهما يتزعمها التاجر الثرى الحير هاشم ، والأخرى يتزعمها ابن أخيه أمية .

---

(\* ) إن كان المؤلف يقصد ما جاء به المسيح من التسامح والرحمة فإن التاريخ لا يعرف كالمسلمين فى تراحمهم ودعوتهم للسلام والمحبة . والقرآن ووصايا الرسول والخلفاء أكبر شاهد على هذا ، ولكن التسامح والرحمة والدعوة إلى السلام والمحبة فى الدين الإسلامى مزوجة كلها بالقوة وعزة النفس . ( المترجم )

وكان لهذا التنافس الشديد شأنه العظيم في تاريخ العرب بعد الرسالة : ولما توفي  
هاشم خلفه في زعامة بيته ابنه أو أخوه الأصغر عبد المطلب - وفي عام ٥٦٨  
تزوج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة ، وهي أيضاً من قصى ، وأقام عبد الله  
مع عروسه أياماً قليلة سافر بعدها في بعثة تجارية ، ومات في المدينة وهو  
راجع من سفره وبعد شهرين من وفاته ( ٥٦٩ ) ولدت آمنة أعظم  
شخصية في تاريخ العصور الوسطى (\*).

---

(\* ) وفي التاريخ كله .

## الفصل الثاني

محمد في مكة

٥٦٩ - ٦٢٢

[ نكرر هنا ما ذكرناه في مقدمة هذا الجزء من أننا آثرنا أن نثبت هذه الفصول التي يتحدث فيها المؤلف عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن القرآن والدين الإسلامى كما أوردها حرصاً منا على الأمانة في الترجمة من جهة ولكى يطلع قراء العربية على بعض آراء الكتاب غير المسلمين من جهة أخرى سواء كانت هذه الآراء مما يتفق مع ما أجمع عليه أولئك القراء أولاً يتفق معه . يضاف إلى ذلك أن هذه الفصول لا تخلو من كثير من الثناء على النبي وتمجيد للإسلام يصحح أن يطلع عليه القراء . على أن إثباتنا لأقوال المؤاف لا يعنى مطلقاً أننا نوافقها عليها . وقد ذكر وهو مسيحي في كلامه على المسيحية ما لا يوافقه عليه كثيرون من أبنائها كما ذكر عن اليهودية ما لا يوافقه عليه كثيرون من اليهود ، ويجب ألا يغفل القراء التعليقات التي أثبتناها في هوامش هذه الفصول ] .

لقد كان محمد من أسرة كريمة ممتازة ، ولكنه لم يرث منها إلا ثروة متواضعة ، فقد ترك له عبد الله خمسة من الإبل ، وقطيعاً من المعز ، وبيتاً ، وأمة عنيت بتربيته في طفولته . ولفظ محمد مشتق من الحمد وهو مبالغة فيه ، كأنه حمد مرة بعد مرة ، ويمكن أن تنطبق عليه بعض فقرات في التوراة تبشر به . وقد توفيت أمه وهو في السادسة من عمره وكفله أولاً جده وكان وقتئذ في السادسة والسبعين من عمره ثم عمه أبو طالب ولقي منهما كثيراً من الحب والرعاية ، ولكن يبدو أن أحداً لم يعن بتعليمه القراءة والكتابة . ولم تكن لهذه الميزة قيمة عند العرب في ذلك الوقت ، ولهذا لم يكن في قبيلة قريش كلها إلا سبعة عشر يقرءون ويكتبون . ولم يعرف عن محمد أنه كتب شيئاً بنفسه ، وكان بعد الرسالة يستخدم كاتباً خاصاً له ولكن هذا لم يحل بينه وبين الحجيء بأشهر (\*) وأبلغ كتاب

---

(\*) هذا رأى المؤلف بطبيعة الحال وليس من حقنا أن نطلب إليه أن يقول إنه منزل

من عند الله . ( المترجم )

في اللغة العربية ، أو بين قدرته على تعرف شئون الناس تعرفا قلما يصل إليه أرقى الناس تعليماً .

ولا نكاد نعرف عن شباب محمد إلا القليل ، وكان ما يروى عنه من القصص قد ملأ عشرة آلاف مجلد . وتقول إحدى الروايات إن عمه أبا طالب قد أخذه معه وهو في الثانية عشرة من عمره في قافلة إلى بصرى ببلاد الشام ، وليس ببعيد أن يكون قد عرف في هذه الرحلة قليلاً من القصص الشعبية اليهودية والمسيحية . وتصوره قصة أخرى بعد بضعة سنين من الرحلة السابقة مسافراً إلى بصرى في تجارة إلى السيدة خديجة وكانت وقتئذ أرملة غنية ، ثم نراه في الخامسة والعشرين من عمره وقد تزوج فجأة بهذه السيدة وهي وقتئذ في الأربعين من عمرها وأم لعدة أبناء . ولم يتزوج غيرها حتى توفيت بعد ذلك بستة وعشرين عاماً ، ولم يكن الاقتصار على زوجة واحدة أمراً مألوفاً عند أغنياء العرب في ذلك الوقت ، ولكن لعله كان طبيعياً في حالتهما . وقد رزق منها عدة بنات أشهرهن كلهن فاطمة ، كما رزق بولدين توفيا في طفولتهما . وقد وجد سلواه في تبنى (\*) علي بن أبي طالب الذي مات عنه والده . وكانت خديجة سيده طيبة ، وزوجة صالحة ، وتاجرة بارعة ظلت وفية لمحمد في صروف حياته الروحية ، وظل يذكرها بعد وفاتها على أنها خير نسائه كلهن .

ويصف علي زوج فاطمة محمداً وهو في سن الخامسة والأربعين بقوله :  
لم يكن الطويل الممغط ولا القصير المتردد ، وكان ربعة من القوم ، ولم يكن بالجد القطط ولا السبط ، كان جعداً رجلاً ، ولم يكن بالمطهم ولا المكثم ، وكان أبيض مشرباً أدعج العينين أهدب الأشفار ، جليل المشاش والكتد ، دقيق

---

( \* ) لم يكن هذا تبنياً بالمعنى المعروف عند الغربيين ولكن الرسول آوى علياً وكفله في تربيته تخفيفاً عن أبيه في الأزمة الشديدة التي أصابت قريشا - راجع سيرة بن هشام .  
( المترجم )

المشربة ، أجود شثن الكفين والقدمين ، إذا مشى تقلع كأنما يمشى في صلب ، وإذا التفت التفت معا ، . . . . أجود الناس كفاً وأجراً الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من آره بديهته هابه ، ومن خالطه أحبه ، يقول ناعته « لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم » .

وكان محمد مهيب الطلعة ، لا يضحك إلا قليلاً ، قادراً على الفكاهة ولكنه لا يترك العنان لهذه الموهبة ، لأنه كان يعرف خطورة المزاح إذا نطق به من يتولى أمور الناس . ولم يكن قوى البنية ، ولهذا كان مرهف الحس سريع التأثر ، ميالاً إلى الانقباض كثير التفكير . كان إذا غضب أو تهيج انتفخت عروق وجهه بدرجة يرتاع لها من حوله (\*) ، ولكنه كان يعرف متى يهدئ من انفعاله ، وكان في وسعه أن يعفو من فوره عن عدوه الأعزل إذا تاب :

وكان في بلاد العرب كثيرون من المسيحيين ، وكان منهم عدد قليل في مكة ، وكان محمد على صلة وثيقة بواحد منهم على الأقل هو ورقة بن نوفل ابن عم خديجة الذي كان مطلعاً على كتب اليهود والمسيحيين المقدسة . وكثيراً ما كان محمد يزور المدينة التي مات فيها والده ، ولعله قد التقى هناك ببعض اليهود وكانوا كثيرين فيها . وتدل كثير من آيات القرآن على إعجابه بأخلاق المسيحيين ، وبما في دين اليهود من نزعة إلى التوحيد ، وبما عاد على المسيحية واليهودية من قوة كبيرة لأن لكليهما كتاباً مقدساً تعتقد أنه موحى من عند الله . ولعله قد بدا له أن ما يسود جزيرة العرب من شرك ، ومن عبادة للأوثان ، ومن فساد خلقي ، ومن حروب بين القبائل وتفكك سياسي ، نقول لعله قد بدا له أن حال بلاد العرب إذا قورنت

---

(\*) كان النبي يغضب أحياناً لله ولدينه ، ولكننا لا نعرف أنه كان يتهيج لأن التهيج صفة لا تليق بمصلح فضلاً عن رسول الله رب العالمين وخاصة والله يصفه بأنه بالمؤمنين وهو رحيم ويقول عنه « وإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ » و « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » . (ي)

بما تأمر به المسيحية واليهودية حال بدائية لا تشرف ساكنيها . ولهذا أحس بالحاجة إلى دين جديد ، لعله أحس بالحاجة إلى دين يؤلف بين هذه الجماعات المتباغضة المتعادية ، ويخلق منها أمة قوية سليمة ، دين يسمو بأخلاقهم عما ألفه البدو من شريعة العنف والانتقام ، ولكنه قائم على أوامر منزلة لا ينازع فيها إنسان ، ولعل هذه الأفكار نفسها قد طافت بعقل غيره من الناس ، فنحن نسمع عن قيام عدد من « المتنبئين » في بلاد العرب في بداية القرن السابع ، ولقد تأثر كثير من العرب بعقيدة المسيح المنتظر التي يؤمن بها اليهود ، وكان هؤلاء أيضاً ينتظرون بفارغ الصبر مجيء رسول من عند الله .

وكانت في البلاد شيعة من العرب تدعى بالحنفية أبت أن تقر بالألوهية لأصنام الكعبة وقامت تنادى بإله واحد يجب أن يكون البشر جميعاً عبيداً له وأن يعبدوه راضين (\*) .

وكان محمد ، كما كان كل داع ناجح في دعوته ، الناطق بلسان أهل زمانه والمعبر عن حاجاتهم وآمالهم .

وكان كلما قرب من سن الأربعين ازداد انهماكاً في شئون الدين ، فإذا حل شهر رمضان (\*\*\*) - وهو من الأشهر الحرم - آوى وحده أو جمع أسرته في بعض الأحيان إلى غار في جبل حراء على بعد ثلاثة أميال من مكة ، وقضى فيه عدة أيام وليالي في الصوم ، والتفكير ، والصلاة . وبينما هو في ذلك الكهف بمفرده في ليلة من ليالي عام ٦١٠ م : إذ حدث له ذلك الحادث العظيم وهو المحور الذي يدور

---

(\*) يريد بهم ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد ابن عمر بن نفيل ، وكانوا قد أيقنوا أن ما هم عليه من الوثنية ليس بشيء فتفرقوا في البلاد يلتمسون الحنفية دين إبراهيم عليه السلام . (ى)

(\*\*) الذى فى سيرة ابن هشام ( ج ١ ص ١٥٣ ) أنه كان « يجاور فى حراء من كل سنة شهراً » دون تعيين أنه شهر رمضان بالذات ، إلا أن هذا الشهر كان رمضان فى السنة التى بعث فيها صلى الله عليه وسلم . (ى)

عليه تاريخ الإسلام كله . ويقول محمد بن إسحق أشهر من كتب سيرة النبي إنه هو نفسه قد وصف هذا الحادث الجليل بقوله « فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ ؟ فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أقرأ ؟ فغتنى حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قال فقلت : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي .، فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهبت من نومي فكأنما كتب في قلبي كتابا ؛ قال فخرجت حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : « يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فرفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال فوقفتم أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء قال فلا أنظر من ناحية منها إلا رأيتك كذلك ، فما زلت واقفاً ما أتقدم أماي وما أرجع ورأيت حتى بعثت خديجة رسلها في طلي (\*) .

ولما عاد إلى خديجة حدثها بما رأى ، وتقول الرواية إنها آمنت بأن ما رآه وحى صادق من السماء ، وشجعتة على أن يعلن للناس رسالته .

وتكرر الوحي بعد ذلك مرات كثيرة ، وكثيراً ما كان يحدث في أثناء هذه الرؤى أن يسقط على الأرض ويرتجف أو يغشى عليه ، ويتصبب العرق من جبينه ، وحتى الحمل الذي كان يركبه كان يتأثر ويضطرب في مشيه . وقد قال محمد فيما بعد إن مشيه كان من أثر هذه التجارب ، ولما طلب إليه أن يصف كيفية نزول الوحي قال : إن القرآن كله محفوظ في السماء وأنه نزل عليه متقطعاً ، وكان ينزل عليه

---

(\*) راجع ابن هشام ( ج ١ ص ١٥٣ وما بعدها ) حيث يروى الحادث كله .

( المترجم )

على لسان جبريل ، ولما سئل كيف يتذكر هذه الأقوال القدسية قال : إن جبريل كان يطلب إليه أن يكررها كلمة كلمة (\*\*). ولم يكن المحيطون بالنبي في هذه الأوقات يرون جبريل أو يسمعونه . وقد يكون ارتجافه ناشئاً من نوبات صرع فقد كان يصحبه في بعض الأحيان صوت وصفه بأنه يشبه صلصلة الجرس ، وتلك حال كثيراً ما تحدث مع هذه النوبات ، ولكننا لا نسمع أنه عنس في خلالها لسانه أو حدث ارتجاء في عضلاته كما يحدث عادة في نوبات الصرع . وليس في تاريخ محمد ما يدل على انحطاط قوة العقل التي يؤدي إليها الصرع عادة ، بل نراه على العكس يزداد ذهنه صفاء ويزداد قدرة على التفكير وثقة بالنفس وقوة في الجسم والروح والزعامة ، كلما تقدمت به السن حتى بلغ الستين من العمر . وقصارى القول أننا لا نجد دليلاً قاطعاً على أن ما كان يحدث للنبي كان من قبيل الصرع . ومهما يكن ذلك الدليل فإنه لا يقنع أى مسلم متمسك بدينه (\*\*).

وأخذ محمد في خلال السنوات الأربع التالية يجهر شيئاً فشيئاً بأنه نبي الله

(\*) في صحيح البخارى ومسلم ذكر لبدء الوحي إلى الرسول وبيان لكيفيته ، ويروى ابن عباس أن الرسول كان يعالج من التنزيل شدة ، وكان يحرك شفثيه ليتابع جبريل فأنزل الله تعالى قوله « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه » ، فكان الرسول بعد ذلك إذا أتاه جبريل بالوحي استمع له فإذا انتهى جبريل قرأه صلى الله عليه وسلم كما قرأه جبريل .

راجع التحديد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح للزبيدي ، طبع دار الكتب العربية الكبرى بمصر سنة ١٣٣٥ هـ ، ج ١ ص ٤ - ٦ ، واللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان لمحمد فؤاد عبد الباقي طبع دار إحياء الكتب العربية للجلبي بمصر سنة ١٩٤٩ م ، ج ١ ص ٣٥ - ٣٨ .

(\*\*) لقد أصاب المؤلف إذ فند قول من يدعون أن النبي كان يصاب بنوبة من نوبات الصرع حين ينزل عليه الوحي ، وإنما الأمر أنه كان يكون في حالة إجهاد عقلي وجسمي ، والله تعالى يقول في سورة الحشر « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله . (ي) »

المبعوث لهداية العزب إلى حياة أخلاقية جديدة وإلى دين التوحيد . وقد لاقى في سبيل دعوته صعاباً كثيرة . ذلك أن الأفكار الجديدة لا يقبلها الناس إلا إذا كانوا يرجون من ورائها نفعاً مادياً عاجلاً ، وأن محمداً كان يعيش في مجتمع تجارى متشكك يحصل على جزء من إيراده من الحجاج الذين يقدون على الكعبة لعبادة آلهتها الكثيرة ، وكان مما تغلب به على بعض هذه الصعاب ما وُعد به المؤمنون من النجاة في الدار الآخرة من نار جهنم والاستمتاع بنعيم الجنة . وكان محمد يستقبل في داره كل من أراد الاستماع إليه ، غنياً كان أو فقيراً أو عبداً رقيقاً ، من العرب والمسيحيين واليهود ، وقد تأثر بحماسة وبلاغة قوله عدد قليل ممن جاءوا إليه وآمنوا به ، وكان أول من آمن برسائله زوجته المسنة السيدة خديجة وآمن بها من بعدها ابن عمه علي ، ثم خادمه زيد وكان قد اشتراه بالمال ثم أعتقه من فوره ، ثم قريبه أبو بكر وهو رجل من ذوى المكانة العالية في قريش . واعتنق الدين الجديد بتأثير أبي بكر خمسة من زعماء مكة (\*) ، كونوا معه « صحابة » محمد الستة . وهم الذين أخذت عنهم فيما بعد السنن الإسلامية ذات المكانة السامية في الدين الإسلامى . وكثيراً ما كان محمد يدخل الكعبة ، ويتحدث إلى الحجاج ، ويدعوهم لعبادة إله واحد (\*) . وسخرت قريش أول الأمر من دعوته ولكنها صبرت عليها ، وقالت إن بعقله خبالاً وعرضت أن ترسله على نفقتها إلى طيب يرجى أن يشفيه من جنونه ، فلما أن أخذ يهاجم دينهم ويقول إن الشعائر التى يقومون بها فى الكعبة ليست إلا عبادة لما فيها من الأوثان هبوا للدفاع عن

---

( \* ) هؤلاء هم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ( سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦٥ ) . أما أصحاب الرسول الذين أخذت عنهم سننه فليسوا هؤلاء الخمسة مع أبى بكر فقط بل هم كثرة كما هو معروف . ( ى )

( \* ) كان الرسول يتعرض للوافدين إلى مكة للحج من قبائل العرب يدعوهم إلى الإسلام . ( ى )

مورد رزقهم (\*) ، وكادوا يقعون به أذى جسيماً لولا أن حماه منهم عمه أبو طالب . ولم يعتنق أبو طالب الدين الجديد ، ولكن إخلاصه لتقاليد العرب القديمة كانت تحتم عليه أن يحمي كل فرد من أفراد قبيلته .

وكان خوف قريش من إثارة الفتنة الصماء بين العرب مانعاً لها من استخدام العنف مع محمد والأحرار من أتباعه ، أما من آمنوا به من العبيد فقد كان في وسعهم أن يستخدموا من الأساليب ما يرونه كفيلاً بردهم عن الدين الجديد دون أن يخالفوا بذلك قوانين القبائل وتقاليدها .

فزجوا بعضهم في السجون وعرضوا البعض الآخر ساعات طوالاً إلى وهج الشمس وهم عراة الرءوس . ومنعوا عنهم الماء (\*\*\*) وكان أبو بكر قد ادخر من تجارته خلال عدة سنين أربعين ألف قطعة من الفضة ، فلما رأى ما كان يحدث لأولئك العبيد أنفق ٣٥٠٠٠ منها في تحرير أكبر عدد من العبيد المسلمين ، ويسر محمد الأمر بقوله إن المرتد المكره لاعتقابه عليه (+) . وغضبت قريش من ترحيب محمد بالعبيد أكثر من غضبها من عقيدته الدينية . وظلت تضطهد من دخل في الإسلام من الفقراء اضطرهاً بلغ من القسوة حداً لم يسمع النبي معه إلا أن يأذن لهم أو يشير عليهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة ، حيث رحب بهم ملكها المسيحي وأكرم وفادتهم (٦١٥) .

وحدثت بعد عام من ذلك الوقت حادثة كان لها من الشأن في تاريخ

---

(\*) كانوا يدفعون عن مورد رزقهم وعن دينهم . وقد قال من ذهب منهم إلى عمه أبي طالب : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا فيما أن تكفه عنا أو أن تخلي بيننا وبينه « سيرة بن هشام جزء ١ : ١٧٠ . (٥) .

(\*\*) يقول ابن إسحق في سيرته « وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبون بالضرب والجوع والعطش وبرد مضاء مكة إذا اشتد الحر من استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم ( ج ١ ص ٢٠٢ ) .

(+) عملاً بقوله تعالى في سورة النحل الآية ١٠٦ « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

الإسلام ما كان لإيمان بولس في تاريخ المسيحية . تلك هي اعتناق عمر بن الخطاب للدين الجديد بعد أن كان من ألد أعدائه وأشدهم عنفاً في مناهضته . وكان عمر رجلاً قوياً الجسم ، ذا مكانة اجتماعية عالية ، وشجاعة أدبية تكاد تكون منقطعة النظير . وبعث إسلامه الثقة في قلوب المؤمنين المضطهدين ، وهي ثقة ما كان أحوجهم إليها في ذلك الوقت كما كان سبباً في دخول كثيرين من العرب في الدين الجديد . وبدأ المسلمون من ذلك الوقت يدعون الناس جهرة في الشوارع والطرقات بعد أن كانوا من قبل لا يعبدون الله إلا سرّاً في بيوتهم . واجتمع المدافعون عن آلهة الكعبة وأقسموا أن يقطعوا كل صلة بينهم وبين من لا يزالون من بني هاشم يرون واجباً عليهم أن يدافعوا عن محمد . ورأى كثيرون من الهاشميين ومن بينهم محمد وأسرته حقناً للدماء أن ينسحبوا إلى شعب منعزل في مكة يستطيع أبو طالب أن يدفع عنهم الأذى فيه (٦١٥) . وظلت هذه الفرقة بين العشائر قائمة سنتين كاملتين عاد بعدها بعض رجال قريش إلى صوابهم فدعوا الهاشميين أن يعودوا إلى بيوتهم وتعهدوا ألا يمسه بسوء .

وابتهجت لهذا القلة المسلمة في مكة ، واکن ثلاثة خطوب أملت بمحمد في عام ٦١٩ ، فقد توفيت في ذلك العام السيدة خديجة أوفى الناس له وأكثرهم تأييداً لدعوته ، وتوفى أبو طالب الذي كان ينصره ويدافع عنه . وأحس محمد أنه لا يأمن على نفسه في مكة ، وآلمه بطء انتشار الدعوة فيها ، فهاجر إلى الطائف (٦٢٠) ، وهي بلدة ظريفة بعيدة عن مكة بنحو ستين ميلاً إلى جهة الشرق . ولكن الطائف لم تقبله ، لأن زعماءها لم يروا من نبلحتهم أن يغضبوا أشراف مكة التجار ، ولأن العامة فزعوا من الدين الجديد فأخذوا يهزءون بمحمد في الشوارع ، ويقذفونه بالحجارة ، حتى سال الدم من ساقه ، فعاد إلى مكة ، وتزوج أرملة تدعى سودة(\*) ، ثم خطب وهو في سن الخمسين عائشة بنت أبي بكر وكانت

وقتئذ فتاة حسناء في السابعة من العمر (\*) .

ولم ينقطع عنه الوحي في هذه الأثناء ، وخيل إليه في ذات ليلة أنه انتقل من نومه إلى بيت المقدس ، حيث رأى في انتظاره عند المبكى من أنقاض هيكل البُرّاق ، وهو جواد مجنح فطار به إلى السماء ، ثم عاد به منها ، ثم وجد النبي نفسه بمعجزة أخرى آمنة في فراشه بمكة . وبفضل هذا الإسراء أصبحت بيت المقدس ثلاثة المدن المقدسة عند المسلمين (\*\*).

وفي عام ٦٢٠ أخذ محمد بيث الدعوة بين التجار الذين وفدوا على مكة ليحجوا إلى الكعبة ، وقبل بعض التجار دعوته ، لأن عقائد التوحيد ، والرسول المبعوث من عند الله ، ويوم الحساب كانت مألوفة عندهم ، انتقلت إليهم من يهود المدينة . ولما عاد هؤلاء التجار إلى بلدتهم أخذ بعضهم يدعون أصدقاءهم إلى الدين الجديد ، ورحب بعض اليهود بهذه الدعوة لأنهم لم يروا فارقاً كبيراً بين تعاليم محمد وتعاليمهم . وفي عام ٦٢٢ أقبل على محمد في مكة سرا ثلاثة وسبعون رجلاً من أهل المدينة ودعوه إلى الهجرة إلى بلدتهم واتخاذها موطناً له . فسألهم هل يدافعون عنه كما يدافعون عن أبنائهم ، فأقسموا أن يفعلوا ، ولكنهم سألوه عما يجوزون به إذا قتلوا في أثناء دفاعهم عنه ، فأجابهم بأن جزاءهم هو الجنة .

وفي ذلك الوقت أصبح أبوسفیان حفيد أمية زعيم قريش في مكة ، وكان قد نشأ في جو من الكراهية لبني هاشم ، فعاد إلى اضطهاد أتباع محمد ، ولعله

---

(\*) تزوج الرسول عائشة رضي الله عنها بمكة وهي بنت سبع سنين وبني بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين أو عشر ، وفي البخاري أنه تزوجها وهي بنت ست ثم بني بها وهي بنت تسع . (ي)

(\*\*) عنى المسلمون بمسألة الإسراء والمعراج فهم من يقول إن الإسراء كان بجسده وروحه ومهم من يقول إن ذلك كان رؤيا حق ومن هؤلاء عائشة أم المؤمنين ومعاوية بن أبي سفيان . راجع سيرة ابن هشام . (ي)

قد سمع أن النبي يعتزم الهجرة من مكة ، وخشى أنه إذا استقر له الأمر في المدينة قد يشن الحرب على مكة وعلى آلهة الكعبة : وعهدت قريش بتحريضه إلى بعض رجالها أن يقبضوا على محمد ، ولعلها عهدت إليهم أن يقتلوه ، وعلم محمد بالخبر ففر هو وأبو بكر إلى غار ثور على بعد فرسخ من مكة ، وظل رسل قريش يبحثون عنهما ثلاثة أيام ولكنهم عجزوا عن العثور عليهما . وجاء أبناء أبي بكر لها يحملين (\*) فركبهما في أثناء الليل واتجها بهما شمالا ، وبعد أن ظلا سائرين عدة أيام قطعاً فيها نحو مائتي ميل وصلا أخيراً إلى المدينة في ٢٤ سبتمبر من عام ٦٢٢ : وكان قد سبقهم إليها مائتان من المسلمين بدعوى أنهم حجاج عائدون من مكة ، ووقفوا عند أبواب المدينة ومعهم من أسلم من أهلها ليستقبلوا النبي ، وبعد سبعة عشر عاماً من ذلك الوقت اتخذ الخليفة عمر اليوم الأول من السنة العربية التي حدثت فيها تلك الهجرة ، وكان هو في ذلك العام يوم ١٦ يولية من سنة ٦٢٢ ، البداية الرسمية للتاريخ الإسلامي .

---

(\*) في حديث الهجرة لا نرى ذكراً صريحاً لأبناء أبي بكر يقدمون للرسول وصاحبه راحلتين ليركباهما في هجرتهما ، وإنما نرى أبا بكر نفسه يشتري راحلتين ويعدهما لذلك اليوم ، ثم نرى أسماء بنت أبي بكر تقدم لها طعاماً في جراب تربطه بقطعة من نطاقها ، ولذلك سميت بذات النطاقين ، ونرى عبد الله بن أبي بكر في قريش بالنهار يسمع ما يقولون في شأن الرسول وصاحبه ثم يأتيهما في المساء ليخبرهما الخبر . (ي)

## الفصل الثالث

محمد في المدينة

٦٢٢ - ٦٣٠

تقع يثرب ، التي سميت فيما بعد « مدينة النبي » على الحافة الغربية من الهضبة العربية الوسطى . وكانت إذا قورنت من حيث جوها بمكة بدت كأنها جنة عدن ، وكان بها مئات من الحدائق وغياض النخل ، والضياع . ولما دخل محمد المدينة تقدمت إليه طائفة في أثر طائفة وألحت عليه أن ينزل عندها ويقيم معها ، وأمسك بعضها بزمام ناقته لئلا تمنعه عن مواصلة السير وأصرت على ذلك إصراراً تمليه عليها تقاليدها العربية ، وكان جوابه غاية في حسن السياسة فكان يقول لهم : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » ، وبهذا لم يترك للغيرة سبيلاً إلى قلوبهم لأن الله وحده هو الذي يسير الناقة ويهديها إلى حيث تقف . وبنى محمد في المكان الذي وقفت فيه ناقته مسجداً وبيتين متجاورين أحدهما اسودة والآخر لعائشة ، وأضاف إليهما مساكن أخرى لزوجاته الأخريات .

وكان حين غادر مكة قد قطع كثيراً من صلوات القرابة ، فلما جاء إلى المدينة اعزم أن يستبدل بصلوات الدم صلوات الأخوة الدينية في الدولة الجديدة ، كما أراد أن يقضى على أسباب الغيرة بين المهاجرين الذين جاءوا من مكة والأنصار الذين أسلموا من أهل المدينة - وكانت بوادر هذه الغيرة قد بدت في ذلك الوقت - فأخى بين كل واحد من إحدى الطائفتين وزميل له من الطائفة الأخرى ، وطلب إلى كلتيهما أن تصلي في المسجد مع أختها . وفي أول احتفال أقيم في المدينة صعد المنبر وقال بصوت عال « الله أكبر » وردد المجتمعون النداء بأعلى صوتهم وسجد لله وهو لا يزال متجهاً بظهره إليهم ، ثم نزل عن المنبر بظهره فلما وصل إلى آخره

سجد لله ثلاث مرات وكان هذا السجود رمزاً للخضوع إلى الله والاستسلام له ومنه سمي الدين الجديد بالإسلام أي « الاستسلام » و « السلم » ، وسمي أتباعه بالمسلمين . ثم التفت إلى الحاضرين وأمرهم أن يحافظوا على هذه الشعائر إلى أبد الدهر ، ولا يزال المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يتبعون هذه السنة في الصلاة سواء كانوا في مسجد ، أو ضاربين في الصحراء ، أو في بلد غريب لا مسجد فيه . وتنتهي (\*) الصلاة بخطبة كانت في زمن النبي خيراً عن وحى وتوجيهها لأعمال الأسبوع وسياسته . ذلك أن النبي كان ينشئ حكومة مدنية في المدينة ، واضطر بحكم الظروف أن يخصص جزءاً متزايداً من وقته للمشاكل العملية المتصلة بالتنظيم الاجتماعي ، والأخلاق ، والعلاقات السياسية بين القبائل ، ولشئون الحرب ، لأنه لم يكن ثمة حد فاصل بين الشؤون الدينية والدنيوية ، بل اجتمعت هذه الشؤون كلها في يد الزعيم الديني كما كانت الحال عند اليهود .

فكان محمد في المدينة الرسول الديني والحاكم السياسي جميعاً ، ولم ترض أكثرية العرب عن هذا الوضع وأخذت تنظر بعين الريبة إلى الدين الجديد وشعائره ، وترى أن محمداً كاد يقضى على تقاليد العرب وحرثهم ، وأنه كان يزوج بهم في الحروب ، وكان من هؤلاء يهود المدينة الذين ظلوا متمسكين بدينهم ولم ينقطعوا عن الاتجار مع قريش في مكة .

وقد عقد محمد مع أولئك اليهود عهداً ينم عن مهارة سياسية كبيرة ، وقد جاء فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن يتبعهم فالحق بهم وبجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربقتهم يتعاقلون بينهم وهم يقيدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو ساعدة ، وبنو الحارث ، وبنو جشم ،

---

(\*) الصحيح أن الخطبة تكون قبل الصلاة أيام الجمع وبعدها أيام العيدين ، وفي غير الجمع والعيدين لا خطبة قبل الصلاة ولا بعدها . (ي)

وبنو النجار ، وبنو عمرو بن عوف ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وإن ذمة الله واحدة ، وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مناصرين عليهم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود وبينهم مواليتهم وأنفسهم ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم (\*) .

وسرعان ما قبلت هذا العهد جميع قبائل اليهود في المدينة وما حولها : قبيلة بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع .

وهاجرت إلى المدينة مائتا أسرة من مكة فنشأت فيها من جراء هذه الهجرة مشكلة الحصول على ما يكفي أهلها من الطعام : وحل محمد هذه المشكلة كما يحلها كل الأقوام الجياع بالحصول على الطعام أنى وجد : ومن ذلك أنه أمر أتباعه بالإغارة على القوافل المارة بالمدينة ، متبعاً في ذلك ما كانت تتبعه معظم القبائل العربية في ذلك الوقت (\*\*). فلما كللت هذه الغارات بالنصر أعطى المغيرين أربعة أخماس الغنائم ، واحتفظ بالخمس الباقي للأعمال الدينية والخيرية ، وكان نصيب من استشهد في هذه الغزوات من حق أرملته ، أما هو فكان جزاؤه الجنة . وكثرت الغزوات ، وتضاعف عدد المشتركين فيها ، وارتاع لها تجار مكة الذين كانت حياتهم الاقتصادية تعتمد على سلامة قوافلهم ، فأخذوا يدبرن أمر الانتقام من محمد والمسلمين . وكان من هذه الغارات واحدة حدثت في آخر يوم من شهر رجب أحد

(\*) هذا عهد له أثره الكبير ومظهره العظيم ، ولم يعقده الرسول مع اليهود فحسب بل هو كما يذكر ابن إسحق كتاب كتبه الرسول بين المهاجرين والأنصار وفيه وادع اليهود وعاهدهم وأقرهم على ذمتهم وأموالهم وقد ذكره ابن هشام في سيرته على طوله . (ى)

(\*\*) لقد كانت الإغارة على قوافل قريش المارة بالمدينة عملاً يراد به الدفاع عن الإسلام واسترداد لبعض ما اغتصبه أهل مكة من أموال المسلمين الذين هاجروا منها . (ى)

الأشهر الحرم التي كان العرب يمتنعون فيها عن جميع أعمال القتال ، وقتل فيها رحل ، وأساعت بذلك إلى سمعة أهل مكة والمدينة على السواء ، وإلى تقاليد العرب المرعية منذ القدم . وفي عام ٦٢٣ جمع محمد نفسه ثلثمائة من المسلمين المسلحين ، واعترض طريق قافلة قادمة من الشام إلى مكة ، وعلم أبو سفيان وكان على رأس القافلة بهذه الخطة ، فغير طريقه ، وأرسل إلى مكة من يطلب النجدة ، وبعثت قريش بتسعمائة من رجالها ، والتقى الجيشان الصغيران عند وادي بدر على بعد عشرين ميلاً جنوبي المدينة . ولو أن محمداً هزم في هذه الغزوة لفضى عليه وعلى الإسلام في هذه المعركة ، ولكنه قاد رجاله بنفسه وانتصر على قريش ، وقويت بهذا النصر شوكة الإسلام ، وعاد المسلمون إلى المدينة ومعهم كثير من الأسرى والغنائم (يناير عام ٦٢٤) ، وقتل من هؤلاء الأسرى بعض من كانوا أشد الناس اضطهاداً للمسلمين في مكة ، وأطلق سراح الباقين نظير فدية كبيرة ، ونجا أبو سفيان ، وأندر المسلمين بالانتقام .

ولما عاد إلى مكة أخذ يواسي أسر القتلى ويشجعهم ، ويطلب عدم البكاء عليهم وورثاتهم ويقول إن الحرب سجال وإنهم سيأخذون بثأرهم ، ثم أقسم ألا يقرب زوجه إلا بعد أن يخرج مرة أخرى لقتال محمد .

واشتد ساعد محمد بهذا النصر ، وجرى العرب بعده على الأساليب المألوفة في الحروب . من ذلك أن شاعرة تدعى عصماء هاجمته في شعرها فتسلل عمير ، وهو مسلم ضير إلى بيتها وطعنها وهي نائمة بسيفه في صدرها طعنة بلغ من قوتها أن نفذ السيف من تحتها إلى فراشها . وفي اليوم التالي سأل محمد عميراً هل قتل عصماء فأجابته ، يا رسول الله إني قد قتلتها ، فقال «نصرت الله ورسوله يا عمير» ، فقال عمير : «هل على شيء من شأنها يا رسول الله؟» فأجابته بقوله إن هذا أمر «لا ينتطح فيه عزان» . ومنها أن رجلاً ممن اعتنقوا الدين اليهودي يدعى أبا عفاك يناهز من العمر مائة عام هجا النبي فقتله بعضهم وهو نائم في فناء بيته ، وارتد شاعر ثالث

من أهل المدينة يدعى كعب بن الأشرف ، وكانت أمه يهودية ، حين انقلب محمد على اليهود ، وكتب قصائد يحرض فيها قريشاً على أن يثأروا لهزيمتهم ، وأثار غضب المسلمين بتشبيهه بنسائهم ، فقال النبي « من لى بابن الأشرف ؟ » فلم يمض آخر النهار حتى كان رأس الشاعر ملقى أمام قدميه . وكان المسلمون يزورون أن هذه الأعمال وأمثالها إن هي إلا دفاع مشروع عن أنفسهم من الخونة ، فقد كان محمد رئيس دولة ، وكان من حقه أن يصدر فيها الأحكام (\*) .

ولم يطل حب اليهود من أهل المدينة لهذا الدين ذى النزعة الحربية ، والذي بدا لهم أول الأمر شديد الشبه بدينهم ، وأخذوا يسخرون من تفسير محمد لكتابهم المقدس ، وقوله إنه هو الذى بشر به آبائهم ، وكان جوابه أن قال ، كما أوحى إليه ، إنهم حرفوا كتابهم ، وقتلوا أنبياءهم ، وأبوا أن يصدقوا المسيح . وكان قد اتخذ بيت المقدس قبلة يتجه إليها المسلمون فى الصلاة ، فاستبدل به فى عام ٦٢٤ مكة والكعبة ، واتهمه اليهود بأنه قد عاد إلى عبادة الأوثان (\*\*). وحدث فى هذا الوقت أن زارت فتاة مسامة سوق بنى قينقاع اليهودى فى المدينة ، وبينما هى جالسة

---

( \* ) هى عصماء بنت مروان وقتلها عمير بن عبدى الخطمى . ولكل حادثة من الحوادث السالفة الذكر ظروف وأسباب تبررها بلا ريب ؛ فهذه عصماء بنت مروان كانت تعيب الإسلام وأهله وتحرض على المسلمين وتؤذيهم أذى شديداً فكان قتلها جزاء ما جنت حقاً واجباً حتمته الضرورة حتى قيل فى شأنها بعد أن قتلت « من يومئذ عز الإسلام وأهله بالمدينة » . وكعب بن الأشرف لم يكن مسلماً ثم ارتد كما يقول المؤلف ، ولو كان كذلك لكان قتله فرضاً من هذه الناحية ، لأن المرتد يجب قتله إن لم يتب ويرجع عن الكفر ؛ لكنه كان كما أشار المؤلف عدواً لله ولرسوله والمؤمنين ، إذ كان يحرض المشركين على المسلمين ، ويشبب بنسائهم حتى أذاهم أذى شديداً ، وهو مع هذا كان ذا جاه ومسموع الكلمة فى قومه ، فكان لهذا عدواً يخشى عدوانه من وجوه مختلفة ، ولهذا كان قتله أمراً مشروعاً وواجباً دفاعاً عن الدين وأهله ، وهم محاطون بالأعداء من كل جانب ، وخاصة وقد لقي المسلمون أذى كثيراً من غدر اليهود بالمدينة مقر الإسلام حينئذ ، والعدو الداخلى فى مثل هذه الظروف أشد ضرراً من العدو الخارجى كما هو معروف . ( ي )

( \*\* ) وفى ذلك نزل قوله تعالى « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » سورة البقرة ( الآية ١٤٤ )

في حانوت صنائع إذ شبك يهودى خبيث قبيصها من وراء ظهرها في أعلى ثيابها ، فلما قامت ورأت ما فعل بها بكت مما لحقها من عار فقتل أحد المسلمين اليهودى الأثيم ، وقتل أخوه اليهودى المسلم ، فجمع محمد أتباعه وحاصر يهود بني قينقاع في حبيهم خمسة عشر يوماً ، حتى استسلموا ، فقبل استسلامهم وأمرهم أن يخرجوا بقضهم وقضيضهم من المدينة ويتركوا وراءهم جميع ممتلكاتهم ، وكان عددهم في ذلك الوقت نحو سبعمائة .

ولا يسعنا إلا أن نعجب بأبي سفيان لأنه استطاع أن يكظم غيظه وينتظر بعد يمينه غير الطبيعية عاماً كاملاً قبل أن يقدم على قتال محمد . وفي أوائل عام ٦٢٥ سار على رأس جيش تبلغ عدته ثلاثة آلاف رجل إلى جبل أحد على بعد ثلاثة أميال شمالى المدينة ، وصحب الجيش خمسة عشر من النساء بينهن زوجات أبى سفيان ليثرن حماسة الجند بأغانيهن الحزينة . ودعوتهن إياهم إلى الانتقام .

ولم يكن جيش المسلمين يزيد على ألف ، وهزم المسلمون في هذه الغزوة ، وحارب فيها محمد بشجاعة عظيمة ، وأصيب بعدة جروح وحمل من الميدان . وقتل في المعركة حمزة عم النبي ومضغت كبده هند أشهر زوجات أبى سفيان ، وكان أبوها ، وعمها ، وأخوها قد قتلوا جميعاً في غزوة بدر ، وكان حمزة نفسه هو الذى قتل أباه ، ثم لم تكتف بهذا بل صنعت لنفسها من جلده وأظافره خلاخيل وأساور . وظن أبو سفيان أن محمداً قد مات ، وعاد منتظراً إلى مكة (\*) . وبعد ستة أشهر من هذه الواقعة شفى النبي واستطاع أن يهاجم بنى النضير ، لأنهم أعانوا قريشا على

---

(\*) الذى تذكره كتب السيرة « أن قريشاً خرجوا معهم بالظعن ( أى نسائهم ) التماساً للحفيظة وألا يفروا » ( ابن هشام ج ٢ ص ١٢٧ ) ثم ذكر ابن هشام بعد هذا بعض من خرجن من الناس فلم يصل بهن إلى عشر ومن بينهن زوجة أبى سفيان لا زوجاته وهى هند بنت عتبة ، كذلك يقول ابن هشام إن الرسول تهيأ للقتال في سبعمائة رجل فقط ( ابن هشام ج ٢ ص ١٢٩ ) : ( ى )

المسلمين وكانوا يأتمرون به ليقتلوه . وبعد أن حاصروهم ثلاثة أسابيع أذن لهم أن يهاجروا من المدينة على أن تأخذ كل أسرة معها حمل بعير . واستولى النبي على بعض ما كان لهم من بساتين النخيل الغنية ، فكان بعضها له ، ووزع ما بقي منها على المهاجرين (\*) . لقد كان محمد يرى أنه في حرب مع أهل مكة ، وأن من حقه أن يؤمن نفسه بإبعاد الجماعات المعادية له عن جناحيه .

وعادت قريش وعاد أبو سفيان إلى مهاجمة المسلمين في عام ٦٢٦ بجيش يبلغ ١٠٠٠٠ رجل يساعدهم يهود بني قريظة مساعدة جديّة . ورأى محمد أنه لا يستطيع مقابلة هذه للقوة الكبيرة في الميدان ، ففضل أن يدافع عن المدينة بحفر خندق حولها . وحاصرتها قريش عشرين يوماً ، حتى فت في عضدهم المطر والعواصف ، فعادوا إلى أوطانهم ، وقاد محمد من فوره ثلاثة آلاف من المسلمين وهاجم بهم يهود بني قريظة ، فلما استسلموا خيرهم بين الإسلام والموت .

وكان النبي في ذلك الوقت قد أصبح من مهرة القواد ، فقد جهز في العشر السنين التي قضاها في المدينة خمساً وستين غزوة وسرية حربية قاد بنفسه سبعا وعشرين منها ، ولكنه كان إلى هذا سياسياً محنكاً ، يعرف كيف يواصل الحرب بطريق السلم ، وكان يشارك المهاجرين في الحنين إلى بيوتهم وأسرتهم في مكة ، ويشارك المهاجرين والأنصار جميعاً في الحنين إلى زيارة الكعبة ، التي كانت في صباهم عزيزة عليهم وموضع إجلالهم .

---

(\*) هاجم الرسول بنى النضير ولما يمض على يوم أحد أكثر من خمسة أشهر لأن يوم أحد كان في منتصف شوال سنة ثلاث من الهجرة وأمر بنى النضير كان في ربيع الأول سنة أربع . وقد أذن لهم النبي أن يأخذوا معهم من أموالهم ما استطاعت الإبل أن تحمله ، إلا السلاح كما يذكر ابن هشام .

وأما تقسيم التوء فقد اتبع فيه النبي قول الله عز وجل : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » . ويقول ابن هشام ( ص ٢ ص ١٧٨ ) عن أموال بنى النضير إن الرسول قسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا رجلين من هؤلاء ذكرا فقرا فأعطاهما أيضا . ( ي )

وفي عام ٦٢٨ أرسل محمد إلى قريش يعرض عليهم الصلح ، ويتعهد لهم  
بسلامة قوافلهم إذا رضوا أن يؤدي شعائر الحج في موسمهم . وأجاب زعماء  
قريش بأنهم يشترطون لقبول هذا العرض أن يمضي قبله عام كامل من  
السلم ، وأدهش محمد أتباعه بقبوله إياه(\*) ، ووقع الطرفان شروط هدنة  
تدوم عشر سنين ، وحدثت بعدئذ غارة على يهود خيبر في مساكنهم الواقعة  
في الشمال الشرقي من المدينة على مسيرة ستة أيام منها ، ودافع اليهود عن  
أنفسهم بأحسن ما يستطيعون من دفاع ، وسقط منهم في أثناء ذلك ثلاثة  
وتسعون رجلاً ، ثم سلم الباقون آخر الأمر ، وسمح لهم بالبقاء في أماكنهم  
يزرعون الأرض ، على شرط أن يسلموا جميع ممتلكاتهم ونصف محصولاتهم  
المستقبلية إلى الفاتحين . ولم يمض أحد من الباقين بسوء ما عدا زعيمهم  
كنانة وابن عمه فقد قطع رأسهما لأنهما أخفيا بعض ما يمتلكان ، وضمت  
صفيه وهي فتاة يهودية في السابعة عشرة من عمرها كانت مخطوبة  
لكنانة(\*\*) ، إلى نساء النبي .

---

(\*) وقد عبر عمر بن الخطاب عن هذه الدهشة إذ أتى رسول الله فقال له : يا رسول  
الله ألسنت برسول الله ؟ قال ! بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أوليسوا  
بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطي الدنيا في ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله لن  
أخالف أمره ولن يضيعني . وحقاً لم يضيع الله رسوله فقد أمنت الدعوة الإسلامية وأخذت رسل  
الرسول تذهب بها آمنة للملوك رؤساء العشائر ، ثم كان بعد ذلك الفتح المبين بعد قليل من  
الزمان . ( ي )

(\*\*) كان سبب سير الرسول إلى خيبر أن أهلها كانوا شديدي العداوة للمسلمين يترصدون  
بهم الدوائر فكان من الحزم إبعادهم . وكان أمر النبي بقتل كنانة بن الربيع بسبب أنه كان عنده  
مال لبني النضير وجحده حين سئل عنه ، والمسلمون في أشد الحاجة إلى المال للاستعداد للحرب ،  
ثم إن الرسول دفعه إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة أي أنه قتله قصاصاً  
بأخيه ، وهذا سبب آخر يجعل قتله أمراً مشروعاً . راجع ابن هشام ج ٢ ص ٢٤ .

أما مسألة استيلاء المسلمين على نصف محصولات أهل خيبر المستقبلية فترجع إلى أنهم هم  
أنفسهم طلبوا إلى الرسول أن يعطيهم الأرض مزارعة على النصف مما تنتجها فصالحهم الرسول  
على ذلك لأنهم كما قالوا هم أنفسهم أعلم بها وأمر لها . ( ي )

وفي عام ٦٢٩ دخل مسلمو المدينة ، البالغ عددهم ألفين ، مكة مسالمين ، وانسحبت قريش إلى التلال لتجنب الاحتكاك بالمسلمين ، وطافت محمد وأتباعه في أثناء ذلك بالكعبة سبع مرات . ومس محمد الحجر الأسود بعصاه مظهراً له دلائل الإجلال ، ولكنه نادى ونادى بعده المسلمون « لا إله إلا الله » . وكان لمسلك المسلمين المنفيين وحسن نظامهم ، ووطنيتهم ، وتقواهم أعظم الأثر في نفوس أهل مكة ، فأسلم من قريش عدد من ذوى المكانة من بينهم خالد بن الوليد وعمر اللذين صاروا فيما بعد من أعظم قواد المسلمين . وعرضت بعض القبائل المجاورة على النبي أن يؤمنها على دينها نظير مساعدتها إياه في القتال ؛ ولما عاد إلى المدينة رأى أنه قد أصبح له من القوة ما يمكنه من الاستيلاء على مكة عنوة :

ولم يكن قد مضى من الهدنة إلا عامان ، ولكن إحدى القبائل المتحالفة مع قريش أخلت بشروط الهدنة فهاجمت إحدى القبائل المسلمة ( ٦٣٠ ) (\*) ، فجمع النبي عشرة آلاف رجل وزحف بهم على مكة ، وأدرك أبو سفيان قوة المسلمين فسمح لهم بأن يدخلوا مكة بلا مقاومة . وكان جواب محمد جواباً كريماً ، فقد أعلن عفواً عاماً عن جميع أهل مكة عدا اثنين أو ثلاثة من أعدائه ، وحطم الأصنام التي كانت في داخل الكعبة وحولها ، ولكنه ترك الحجر الأسود في مكانه وأجاز تقييله . ونادى بمكة مدينة الإسلام المقدسة ، وأعلن أنه لن يدخلها بعد ذلك اليوم كافر ، وامتنعت قريش بعدئذ عن كل مقاومة مباشرة ، وأصبح الرجل المضطهد الذي هاجر من مكة منذ ثمان سنين صاحب الكلمة العليا في حياتها .

---

( \* ) نقضت قريش الهدنة إذ ساعدت إبّالصلاح بنى بكر - وكانوا قد دخلوا في عهد قريش - على بنى خزاعة الذين دخلوا في عهد الرسول . بل إن نفراً من قريش قاتلوا بأنفسهم خزاعة في صفوف بنى بكر ، وجاء من خزاعة إلى الرسول من يطالبه بالنصر وفاء بالعهد ، فكان لا بد من الاستعداد للمسير إلى مكة لفتحها . ( ي )

## الفصل الرابع

### انتصار النبي

قضى النبي معظم العامين الباقيين من حياته في المدينة ، وكان ينتقل فيها من نصر إلى نصر ، فقد خضعت فيهما بلاد العرب كلها ، بعد فتن قليلة الشأن ، إلى سلطانه ودخلت في دين الإسلام . وجاء إلى المدينة كعب بن زهير ، أعظم شعراء العرب في ذلك الوقت ، وكان قد هجا النبي بعض قصائده ، وأسلم نفسه إليه ، واعتنق الإسلام ، فعفا عنه النبي ، وأنشأ الشاعر قصيدة عصماء في مديح النبي أجازه عليها ببردته(\*) ، وعاهد النبي المسيحيين في بلاد العرب ، وأخذ على نفسه أن يحميهم وأن يكونوا أحرارا في ممارسة شعائر دينهم نظير ضريبة هينة ، ولكنه نهاهم عن الربا ، ويقول المؤرخون إنه بعث الوفود إلى ملك الروم ، وملك الفرس وإلى أمير الحيرة وبنى غسان ، يدعوهم إلى الدين الجديد ، ويلوح أن أحداً منهم لم يرد على رسائله(\*\*) ، وكان يشهد بعين المستسلم الفيلسوف الحروب المشتعلة نارها بين فارس وبيزنطية وما جرته على الدولتين من خراب ، ولكن يبدو أنه لم يفكر قط في توسيع سلطانه خارج حدود بلاد العرب(+)

---

(\*) وبيعت بعدئذ لمعاوية بأربعين ألف درهم ، ولا يزال الأتراك يحتفظون بها إلى اليوم وتتخذ في بعض الأحيان علما قومياً . (ى)

(\*\*) من هؤلاء من رد رداً قبيحاً مثل كسرى ، ومنهم من رد رداً جميلاً مثل قيصر ، ومنهم من وعد بالنظر في الأمر مثل «المقوقس» حاكم مصر والمنذر صاحب البحرين وجبله ابن الأيهم النسائي . راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢٠ . (ى)

(+) لعل المؤلف يريد بقوله إن النبي لم يفكر في توسيع حدود الدولة الجديدة خارج حدود بلاد العرب أنه لم يكن يريد ضمها إلى الدولة الناشئة الجديدة وهذا لا ينفي أنه أراد أن يدعو أهلها إلى الدخول في دين الإسلام . (المترجم)

وكانت أعمال الحكومة تشغل وقته كله ، فقد كان يعنى أشد العناية بكل صغيرة وكبيرة في شئون التشريع والقضاء ، والتنظيم المدني ، والديني ، والحزبي . وحتى التقويم نفسه قد عني بتنظيمه لأتباعه ، فقد كان العرب يقسمون السنة كما يقسمها اليهود إلى اثني عشر شهراً قريبا ، وكانوا يضيفون إليها شهراً كل ثلاث سنوات لكي تتفق مع السنة الشمسية . فأمر النبي أن تكون السنة الإسلامية اثني عشر شهراً على الدوام كل منها ثلاثون يوماً أو تسعة وعشرون على التوالي ، وكانت نتيجة هذا أن أصبحت السنة الإسلامية فيما بعد غير متفقة مع فصول السنة ، وأن تقدم التقويم الإسلامي سنة كاملة عن التقويم الجريجوري كل اثنتين وثلاثين سنة .

ولم يكن النبي مشرعاً علمياً ، فلم يضع لأُمَّته كتاباً في القانون أو موجزاً فيه ، ولم يسر في تشريعه على نظام مقرر ، بل كان يصدر الأوامر حسبما تمليه عليه الظروف . فإذا أدى هذا إلى شيء من التناقض أزاله بوحى جديد ينسخ القديم ويجعله كأن لم يكن (\*) ، وحتى شئون الحياة العادية كانت أوامره فيها تعرض في بعض الأحيان كأنها موحى بها من عند الله . وكان اضطراره إلى تكييف هذه الوسيلة السامية بحيث تتفق مع الشئون الدنيوية مما أفقد أسلوبه بعض ما كان يتصف به من بلاغة وشاعرية ، ولكن لعله كان يشعر بأنه بهذه التوضيحية القليلة جعل كل تشريعاته

---

(\*) من الصحيح أن الرسول لم يضع كتاباً في القانون ، ولكن ليس صحيحاً أنه لم يسر في تشريعه على نظام مقرر ، فإن القرآن بنصوصه وروحه العامة قد حدد أصول التشريع بصفة عامة ، ثم كان الرسول بسنته مبيناً لهذا القرآن بالتفسير والإيضاح ، ولهذا يقول الله تعالى في سورة النحل « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » . أما النسخ فسببه أن التشريعات الواردة في القرآن الكريم لم تنزل من الله دفعة واحدة ، بل كانت راحة من الله تنزل متدرجة تبعاً للحالات ، فيكون من الطبيعي أن يحصل فيها نسخ . على أن هذا كان في حالات قليلة معدومة . (ى) .

تصطبغ بالصبغة الدينية الرهيبة(\*) . ومع اضطلاع النبي بهذه الشؤون كلها فقد كان جم التواضع إلى درجة تحببه إلى النفوس ، وكثيراً ما كان يعترف بأن ثمة أموراً لا يعرفها ، ويحتج على الذين يظنونهم أكثر من إنسان يجري عليه ما يجري على الناس جميعاً من موت ووقوع في الخطأ .

ولم يدع في يوم من الأيام أنه قادر على معرفة الغيب أو الإتيان بالمعجزات ، لكنه مع هذا لم يكن يستنكف أن يستعين بالوحي في الأغراض البشرية والشخصية ، كما حدث حين أنزل الوحي مؤيداً زواجه من زوجة زيد متبناه(\*\*) . وتزوج النبي بعشر نساء وكانت له اثنتان من السراري هن مبعث الدهشة والحسد والتعليق والمدح عند الغربيين ، ولكن علينا أن نذكر على الدوام أن نسبة الوفيات العالية من الذكور بين الساميين في العصر القديم . وفي بداية العصور الوسطى جعلت تعدد الزوجات ، في نظر هؤلاء الساميين ، ضرورة حيوية تكاد تكون واجبا أخلاقيا ؛ وكان تعدد الزوجات في نظر النبي أمراً عادياً مسلماً به لا غبار عليه ، ولذلك كان يقبل عليه وهو مرتاح الضمير لا يبغى به إشباع الشهوة الجنسية ، ويروى عن عائشة حديث عن النبي مشكوك في صحته يقول فيه « حُبب إلىَّ من

---

(\*) نكرر هنا ما قلناه من قبل من أن المؤلف وأمثاله من غير المسلمين يرون أن القرآن من قول النبي لا من عند الله . أما وهو من عند الله حقاً فإن النبي لم يُصَحَّ بشيء من فاحية القرآن وأسلوبه ، ولكن الأسلوب يختلف بلا شك في مواضع عنه في أخرى تبعاً للغاية التي يريدتها الله ، وإن كان جميعه في أعلى درجات البلاغة التي لا يمكن أن يتطلع أحد إلى مداناتها . (ى)

(\*\*) إن لتشريع تعدد الزوجات غاية أخرى حكيمة ترجع إلى أن يكون المرء بمنجاة من الاتصال بخليلات غير قليلات بجانب الزوجة الشرعية . ولقد تبين لبعض الغربيين اليوم أن إباحة تعدد الزوجات هو العلاج الوحيد لمشكلة زيادة النساء على الرجال زيادة كبرى بسبب الحروب ، فقد طالب أهل مدينة « بون » عاصمة ألمانيا الغربية أن يتضمن دستورهم تشريعاً يبيح هذا التعدد .

أما الزوجات اللاتي عقد عليهن النبي فكان ثلاث عشرة وقد دخل بإحدى عشرة منهن ولم يدخل باثنتين . وقد عني رجال السيرة بذكر سبب زواج كل واحدة منهن وبذكر شيء من سيرتهن جميعاً رضوان الله عليهن . راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٦٦ - ٣٦٨ . (ى)

دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وقرّة عيني في الصلاة» (\*) ولقد كانت بعض زيجاته من أعمال البر والرحمة بالأرامل الفقيرات اللاتي توفى عنهن أتباعه أو أصدقائه ، وكان بعضها زيجات دبلوماسية كزواجه بحفصة بنت عمر الذي أراد به أن يوثق صلته بأبيها ، وكزواجه من ابنة أبي سفيان ليكسب بذلك صداقة عدوه القديم . وربما كان الدافع إلى بعضها أمله في أن يكون له ولد ، وهو أمل حرم منه زمناً طويلاً . وكانت زوجاته كلهن ما عدا خديجة عقيبات ، وكان هذا موضع السخرية بين أعدائه ، ولم يبق من أبنائه الذين رزقهم من خديجة إلا فاطمة . وقد رزق من مارية القبطية التي أهداها إليه نجاشي الحبشة ، بولد اغتبط النبي بمولده أشد الاغتباط ، ولكن إبراهيم مات بعد خمسة عشر شهراً من مولده .

وكثيراً ما ضايقه نساؤه بمنازعتن ، وغيرتهن ، ومطالبهن ، ولكنه أبي أن يجيبهن إلى مطالبهن الكثيرة ، ووعدهن بالجنة ، وقضى بعض الوقت يعدل بينهن فيقضي ليلة عند كل واحدة منهن ، ذلك أن سيد بلاد العرب كلها لم يكن يملك بيتاً خاصاً له ، غير أن عائشة قد استأثرت بأكبر من حقها من عنايته (\*\*\*) ، فغضبت لذلك زوجاته الأخريات حتى نزلت الآية : « ترجى من تشاء منهن وتوى إليك من تشاء ، ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم ، وكان الله عليماً حليماً » . وكانت حياة النبي فيما عدا النساء والسلطان غاية في البساطة ، فقد كانت

---

(\*) تكلم في شأن هذا كثير من رجال الحديث . « راجع كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس » للمحدث إسماعيل بن محمد العجلوني .

(\*\*) لقد كان الرسول يعدل بين زوجاته جميعاً فيما يملك ، أما ميل القلب فشيء لا يملكه ومن المعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفضل السيدة عائشة عن سائر نسائه ما عدا السيدة خديجة . ( ي )

المساكن التي أقام بها واحداً بعد واحد كلها من اللبن ، لا يزيد اتساعها على اثنتي عشرة أو أربع عشرة قدماً ، ولا يزيد ارتفاعها على ثمان أقدام ، سقفها من جريد النخل ، وأبوابها ستائر من شعر المعز أو وبر الجمال . أما الفراش فلم يكن أكثر من حشية تفرش على الأرض ووسادة ، وكثيراً ما كان يشاهد وهو يخلص نعليه ، ويرقع ثوبه ، وينفخ النار ، ويكنس أرض الدار ، ويحلب عزة البيت في فنائه ، ويبتاع الطعام من السوق . وكان يأكل بيده ، ويلق أصابعه بعد كل وجبة ، وكان طعامه الأساسي التمر وخبز الشعير ، وكان اللبن وعسل النحل كل ما يستمتع به من الترف في بعض الأحيان . ولم يتعاط الخمر التي حرمها هو على غيره ، وكان لطيفاً مع العطاء ، بشوشاً في أوجه الضعفاء ، عظيماً مهيباً أمام المتعاضمين المتكبرين ، متسامحاً مع أعوانه ، يشترك في تشييع كل جنازة تمر به ، ولم يتظاهر قط بأبهة السلطان . وكان يرفض أن يوجه إليه شيء من التعظيم الخاص ، يقبل دعوة العبد الرقيق إلى الطعام ، ولا يطلب إلى عبد أن يقوم له بعمل يجد لديه من الوقت والقوة ما يمكنه من القيام به لنفسه . ولم يكن ينفق على أسرته إلا القليل من المال رغم ما كان يرد إليه من النىء وغيره من الموارد ، أما ما كان ينفقه على نفسه فقد كان أقل من القليل . وكان يخصص الصدقات بالجزء الأكبر من هذا المال ، لكنه كان ككل الناس يعنى بمظهره الشخصي ويقضى في تلك العناية كثيراً من الوقت ، فكان يتعطر ويكتحل ، ويصبغ شعره ، ويلبس خاتماً نقش عليه « محمد رسول الله » ، وربما كان الغرض من هذا الخاتم هو توقيع الوثائق والرسائل . وكان صوته موسيقياً حلواً يأسر القلوب ، وكان يهدف الحس إلى أقصى حد ، لا يطبق الروائح الكريمة ، ولا صلصلة الأجراس ، أو الأصوات العالية « واقصد في مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » . وكان قلقاً عصبى المزاج ، يرى أحياناً كاسف البال ، ثم ينقلب فجأة مرحاً كثير الحديث ، وكان حلو الفكاهة فقد ( ٥ - ج ٢ - مجلد ٤ )

قال مرة لأبي هريرة ، وكان يتردد عليه كثيراً : « يا أبا هريرة زرعياً  
تزدد حباً » . وكان محاربا صارما لا يرحم عدواً (\*) ، وقاضيا عادلا في وسعه  
أن يقسو ويغدر ، ولكن أعماله الرحيمة أكثر من أن تعد . وقد قضى على  
كثير من الخرافات الهمجية كفقء أعين بعض الحيوانات لوقايتها من الحسد ،  
أو ربط بعير الميت عند قبره . وكان أصدقاؤه يحبونه حبا يقرب من العبادة ،  
وكان أتباعه يجمعون بصاقه أو شعره يعد قصه ، أو الماء الذي يغسل به  
يديه ، لاعتقادهم أن في هذه الفضلات شفاء لهم من ضعفهم أو مرضهم .  
وقد أعانه نشاطه وصحته على أداء جميع واجبات الحب والحرب (xxx) ،

ولكنه أخذ يضعف حين بلغ التاسعة والخمسين من عمره ، وظن أن يهود  
خيبر قد دسوا له السم في اللحم قبل عام من ذلك الوقت ، فأصبح بعد ذلك  
الحين عرضة لحميات ونوبات غريبة . وتقول عائشة إنه كان يخرج من بيته  
في ظلام الليل ، ويزور القبور ، ويطلب المغفرة للأموات (+) ، ويدعو  
الله لهم جهرة ، ويهتفهم على أنهم موتى . ولما بلغ الثالثة والستين من عمره  
اشتدت عليه هذه الحميات ، وحدث في إحدى الليالي أن شكت عائشة  
الصداع ، وأن شكاه هو نفسه وسألها وهو يمازحها ألا تفضل أن تموت  
هي قبله ، فتحظي بأن بدفنها رسول الله ، فأجابته بحديثها المعهود ، أنه حين  
يعود من دفنها سيأتي بعروس أخرى مكانها . وظلت الحمى تعاوده أربعة  
عشر يوماً بعد ذلك الوقت ، وقبل وفاته بثلاثة أيام نهض من فراشه ،

---

(\*) كان النبي رحيماً بالناس جميعاً كما يقول المؤلف ، هذا ولم يكن للرسول شخصياً  
أعداء بل كان هؤلاء أعداء الله وأعداء دينه الذي ارتضاه للناس جميعاً وعملوا ما في وسعه  
لإطفاء نور الله ، فلا جرم أن تكون من الرسول شدة على بعضهم حين يتبين له أنهم مصروا  
على عدوانهم .

(\*\*) لعله يريد واجبات الحب للمسلمين والحرب للدفاع عنه . (ى)

(+) يشير المؤلف إلى قول الرسول في أوائل مرضه الذي توفي فيه « إني قد أمرت  
أن أستغفر لأهل هذا البقيع (مدافن أهل المدينة) ثم ذهب فعلا واستغفر لهم . (راجع سير  
ابن هشام ج ٢ ص ٣٦٦) . (ى)

ودخل المسجد وشاهد أبا بكر يؤم المسلمين للصلاة بدله ، فجلس متواضعاً إلى جانبه حتى أتم صلاته : وفي اليوم السابع من شهر يونيه عام ٦٣٢ توفى ورأسه على صدر عائشة :

وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمداً كان من أعظم عطاء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألفت به في دياجير الهمجية حرارة الجوع وجذب الصحراء ، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أى مصلح آخر في التاريخ كله ، وقل أن نجد إنساناً غيره حقق كل ما كان يحلم به . وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين ، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى ، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذى سلكوه ، فقد لجأ إلى خيالهم ، وإلى مخاوفهم وآمالهم ، وخاطبهم على قدر عقولهم ، وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جديباء ، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان ، قليل عددها متفرقة كالمها ، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة : وقد كبح جماح التعصب والانحرافات ، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ، ودين بلاده القديم ، ديناً سهلاً واضحاً قوياً ، وصرحاً خلقياً قوامه البسالة والعزة القومية . واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة ، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة ، وأن يبنى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم :